... وكان النِّفاق جميلًا

عصير الكتب

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: سبتمبر 2022م
رقم الإيداع: 2022/20325م
الترقيم الدولي: 5-60-6972-977-978

المؤلف: د. خالد غطاس
تدقيق لغوي: محمود عاطف
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» لتجارة الكتب
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

د. خالد غطّاس

...وكان النِّفاق جميلًا

روايات فلسفيَّة قصيرة

عصير الكتب

الإهداء

إلى الذين لا يثنيهم التأقلم مع الواقع عن محاولة تغييره...

إلى الذين يبطئون ليتفكّروا في أي وجهة يسيرون...

إلى الذين يتحدَّوْن دنيا قائمة بدنيا أفضل...

إلى الذين ينهضون ويستنهضون...

إلى الذين لا يخافون الأمل...

إلى أصدقائي وأصدقائهم...

إلى أهلي وأهلهم...

إلى أمِّي وأبي...

إلى أختي...

إليها...

المحتويات

المقدِّمة.. بين الغرور والغباء! 9

... وكان النِّفاق جميلًا 19

قصَّة بسيناريوهين! 29

بين الغريب والسائد 47

رفاهية الشك 69

حبٌّ ووحدتان! 83

ليس كلُّ جبَّارٍ كاملًا: الجزء الأول: المقدِّمة 113

ليس كلُّ جبَّارٍ كاملًا: الجزء الثاني: الرواية 127

المقدِّمة

بين الغرور والغباء!

أجد صعوبة بالغة في التَّعريف عن نفسي كتابةً، لذلك سوف أقتبس الجملة التي بدأ بها عالم الأحياء والطبيب الفرنسي أليكسس كاريل كتابه «الإنسان، ذلك المجهول» إذ قال: «لست فيلسوفًا، ولكنِّي رجل علم فقط، قضيت الشطر الأكبر من عمري في المعمل أدرس الكائنات الحيَّة، والشطر الآخر، في العالم الفسيح أدرس بني الإنسان وأحاول أن أفهمهم». مع الفرق الشاسع بيننا إلا أنني أرى أن هذه الجملة قد تصفني بشيء من الدقة، على الأقل على الورق.

أنا كذلك لست فيلسوفًا ولا كاتبًا ولا روائيًّا ولا أديبًا محترفًا، ولكنِّي رجل علم فقط. تمامًا مثل الدكتور كاريل، أنا عالم أحياء قضيت شطرًا كبيرًا من حياتي في المعمل حيث انخرطت في المعركة البحثيَّة المستعرة بين البشريَّة ومرض السرطان. وقضيت شطرًا آخر أغُوص في أعماق نفسي والبشر وأرقب مشاعري ومشاعر من حولي، وأحاول

فهم ما يدور في دنيا اليوم على مستوى الفرد والمجتمع، والعلاقة التي تجمع بينهما. وتمامًا كالدكتور كاريل، وجدت أن هناك فجوة في قلوبنا وكياننا لا يملؤها العلم مع تطوُّره، ولا يسدُّها المنطق ولا تفسِّرها نظريَّات العلوم الحديثة، ولا نماذج العيش المطروحة حاليًّا. اعتبرت أنَّ فراغ هذه الفجوة يؤثر بشكل بالغ الأهميَّة في حياتنا، فَرُحت أحاول ملء هذا الفراغ، مدفوعًا بوهم الإجابات الأكيدة، ولكني سرعان ما اكتشفت أنِّي غبي!

لقد استثمرت جزءًا يسيرًا من عمري سعيًا وراء وهمٍ لم يُزهر، أو بمعنى أصح أزهر حيث لم أتوقع. ارتأيت منذ صغري أنَّ النَّاس قد ضلُّوا سبل الرَّاحة والسَّعادة والكياسة بما أفسدوا على أنفسهم، وتوهَّمت أنِّي أملك الدَّليل إلى تلك السبل من جديد. كانت أمِّي تضحك لرؤياي، فاعتقدت أنَّني جالب المسرَّة. كانت عينا أبي تبرقان وأنا أنجح في تفاهات الطفولة، فاعتقدت أنَّني تجسُّدٌ للأمل. كانت أختي تلجأ إليَّ، فاعتقدت أنِّي قوي. وكان أصدقائي يستنصحونني، فاعتقدت أنِّي حكيم، كم كنت غبيًّا...

انتابتني منذ ذاك الوقت رغبة غريبة في أن أُسْمع، لكي أُغيِّر حياة النَّاس من حولي. وأتت تلك الفكرة الَّتي تسرق الأعمار تتسحَّب كالأفعى على ألسنة المحبِّين والمبغضين،

تسرَّبَت داخل رأسي وتملَّكتني وراحت تنفث سُمَّها في داخلي وتقول: من أنت ليستمعوا إليك؟ ما إنجازاتك لينصتوا لك؟ كيف ولماذا يتَّخذونك مصدرًا لأي شيء مهما زادت أهميَّته أو ضؤلت؟

غدوت أبحث عن إجابة تُخمد سُمَّ تلك الفكرة، وبدأت أحاول التَّموضع في زِيِّ صاحب الإنجازات والشَّهادات. كان الوهم يزداد، والفكرة تمخر في نفسي وتقول عندما تصبح دكتورًا سيسمعون، ثم تقول عندما تصبح رياضيًّا سيسمعون، ثم تقول عندما تصبح غنيًّا سيسمعون، وفي كلِّ مرحلة تقنعني تلك الفكرة اللَّعينة بأن النَّاس يستمعون إلى من نجح بمعاييرهم، وكنت أقتنع، كم كنت غبيًّا...

اكتشفت أني غبي لسببين: فلا أنا أملك دليل السَّعادة والكياسة التي زعمت واعتقدت، ولا النَّاس يستمعون إلى من نجح بمعاييرهم، وضاع العمر بين هذه وتلك. لقد اكتشفت الآن أنِّي سعادة أمِّي وأمل عينَيْ أبي لما يكنُّون لي من شعور، وملجأ أختي لأنِّي أخاف عليها، وناصح أصدقائي لأنَّهم يثقون بي. لقد اكتشفت أنَّ النَّاس لا يستمعون إلى رمز ولا لقب ولا حالة اجتماعية. إنَّ النَّاس يستمعون إلى قلب إنسان عادي تائه محب يبحث معهم بصدق في مشاعرهم، ولا تأبه بجميل قول لسان

من ادَّعى أنه يعلم أو تحصَّن خلف وهم لقب أو اعتلى منصَّة مال، كم كنت غبيًّا...

يفتح هذا الاكتشاف الخطير الباب أمام ما أوصده غباء الغرور والعجب وحب الذات، ويعطي رخصة ضمنيَّة للأسئلة أن تتسرَّب بين تصدُّعات الأجوبة التي تدَّعي امتلاك الحقيقة، وتدَّعي الصَّلابة. وهي فعليًّا تتهاوى يومًا بعد يوم مع كلِّ معضلة وكل شعور غريب يراودنا لا نستطيع فهمه أو إلغاءه أو العيش معه في مجتمعنا المعاصر، في الشَّرق أو الغرب، أو التيه الشَّاسع الذي بينهما. يدرك المرء متأخرًا أن الأجوبة الأكيدة الصَّارمة تَحُدُّ العقل وتحاصر الحقيقة في حين تفتح الأسئلة عنان الفكر وتمنح فرصًا أعلى للوصول إلى حقائق أكثر اكتمالًا.

لا شكَّ أنَّ حتميَّة الأجوبة في داخلنا أمر مريح. محسودٌ من لديه القدرة أن يمنع تسرُّب أي شك إلى ما قرَّر أن يعتبره صحيحًا أو ثابتًا أو يقينيًّا. فلا تلامس نفسه -للحظة- فكرة أن يتساءل إن كان فعلًا على الحق فيما يعتقد أو حتى فيما يشعر. تقف هذه القدرة كبرزخٍ بينه وبين الدُّنيا بما تحمل من حقائق وآراء وأحداث مختلفة ومتناقضة، وتعمل عمل المصفاة فتنقِّي من الدُّنيا ما يخالف آراءه وتحجب مروره إلى عقله وقلبه، وتتيح الطريق حصرًا لما يبارك ما يعتقد هو بالأصل ويساعد

على زيادة ترسيخه. محسودٌ بالفعل من لديه هذه القدرة، ولكن ليس كلُّ محسود ذا نعمة.

تكمن خطورة هذه النِّعمة البالغة بين ثنايا الدُّنيا المتغيرة بشكل غير مسبوق، فيتحدَّى الإنسان الجريء أجوبته الأكيدة، فتتهاوى أمام نفسه وأمام النَّاس، وبذلك يتعرَّى من هويَّته أو ينكرها.

لذلك، إن [illegible] تتوقَّع من هذا الكتاب أن يقدِّم أجوبة واضحة وصريحة أو نصائح بعدد محدَّد، تساعدك على فهم أمر ما أو الوصول إلى هدف ما أو السَّيطرة على شعور ما، فلا تشترِه، أَعِدْهُ إلى رَفِّ المكتبة وامضِ إلى غيره. وإن كنت قد اشتريته قبل أن تقرأ هذه المقدمة، فعوَّض الله عليك، ضعه في رف مكتبتك بجانب تلك الكتب التي لم تكملها أو لم تفتحها ولا لمرَّة، قد يأتي حفيد أو ابن أخٍ أو أخت لا يتوقَّع من هذا الكتاب ما تتوقَّع أنت. وإن كنت قد عزمت على قراءته على أي حال، فعليك أن تتهيَّأ لينتهِيَ بك هذا الكتاب بمزيد من الأسئلة.

«لحظة من فضلك»

قد يتبادر في ذهنك الآن أنَّنا سنعالج موضوعات فلسفيَّة، ونخوض في أسئلة وجوديَّة عن الله والإنسان والكون والدِّين والخير والشَّر، ونخرج منها كما دخلنا أوَّل مرَّة بلا أجوبة

شافية، وهذا أبعد ما يكون عن الصَّواب. بل سنقارب موضوعات إنسانيَّة في صلب واقعنا وحياتنا ومشاعرنا اليوميَّة بشكل روائي بسيط يحثُّ على التأمُّل والتخيُّل والاستنتاج، آملين توصيف حالة مشتركة نمرُّ بها جميعًا في أيَّامنا هذه، وسنحاول قدر المستطاع أن لا تضيع الفكرة في القصَّة ولا القصَّة في الفكرة.

قد تبدو موضوعات هذا الكتاب ورواياته غير مترابطة، ولكنها تجتمع بجوهرها فينا نحن بني الإنسان. سوف نقارب، بطرائق مختلفة، موضوعات شتَّى كعلاقة الإنسان بالعلم والتِّكنولوجيا، والأزمات التي تصحب الحياة العصريَّة، والفراغ المتزايد في دنيا ملأتها الضوضاء والانشغال، وتبدُّل معايير النَّجاح، وهاجس البحث عن السَّعادة، وغيرها من الموضوعات كالنِّفاق، والخيانة، والسرِّ، والغيرة، والخوف، والأمل، والحب، ومفاهيم أخرى نطرحها على صورة روايات قصيرة تفتح أفق التفكُّر وتهب القارئ وجهة نظر قد تكون قد فاتته.

سوف نمضي معًا بين قصص هذا الكتاب مستعينين بالدَّرجة الأولى بالخيال والفكر والمشاعر، ومن بعدها تأتي المصادر العلميَّة من بحوث ودراسات، ومنها الفنيَّة من روايات وأفلام، ومنها المستخلصة من صلب الحياة كما وردت على ألسنة العظماء المشهورين وكذلك العظماء المغمورين، المنتشرين

بوفرة في زوايا حياتنا، وغيرها من المصادر المتنوِّعة وغير المألوفة.

كثير من الحوارات والقصص التي دارت بين الشخصيَّات الواردة في الكتاب قد حدثت بالفعل، وكثير منها من نسج الخيال البحت، ولك أن تقرِّر أنت أيُّها هاته وأيُّها تلك.

... وكان النِّفاق جميلًا

بعض اللَّيالي خُلقت لتصنع ذكرى في حياتنا بمحض صدفة.

أَمعِن في النَّظر خلف عينيك باتِّجاه رأسك للحظة واسترجع ذكرى جميلة أو اثنتين، وحلِّل الأحداث المتفرِّقة التي أدَّت إلى حدوث تلك الذكرى في ذلك اليوم تحديدًا. إن كنت كمعظمنا نحن البشر، فسوف ترصد أحداثًا ومصادفات وأقدارًا تراكَمَتْ بغير ترتيب منَّا، تخلَّلَتْها فوضى وقليل من الجنون والعشوائيَّة، لتهبك تلك الذِّكرى. تدخل الذِّكرى في كيانك وتضيء تلك الليالي دون سواها، ويصبح الماضي في رأسنا كخيوط زينة شجرة الميلاد، فيها مواقع من نور يربطها شريط أسود ضروري لمرور التيَّار، ولكنَّه غير ملحوظ. قد يُقاس غنى حياة المرء بكميَّة الذِّكريات المضيئة في جوف ماضيه، وبِكَمِّ المشاعر المرتبطة بتلك الذكريات.

... وكان النِّفاق جميلًا

في ليلة شبه صيفيَّة من ليالي الذِّكريات المضيئة تلك، تسلَّل شاب وحبيبته، أو من أصبحت حبيبته بعد ذلك، إلى حرم الجامعة الأمريكيَّة في بيروت عبر البوابة البحريَّة إذ وجداها بالصدفة بلا حارس. سحبت الحبيبة يد الشاب بسرعة باتجاه المدخل وطاوعها بغير مقاومة. ما إن دخلَا حتى رآهما رجل أمن عجوز بعض الشَّيء، فأسرعَا الخطى قليلًا وقفزَا خارج مسار المشي وأعمدة الإنارة وهما يهمسان بالضحك، بقِيَا على تلك الحال لبضع دقائق، ثم مشَيَا بخفَّة لا يعلمان كيف وإلى أين يتَّجهان.

كانت علاقتهما في شهورها الأولى، تلك المرحلة التي تُظهر اكتمال الدُّنيا وتُبديها رائعة لا يشوبها شيء على الإطلاق. تلك البداية التي يحظى فيها كلاهما باهتمام الآخر التَّام والحصري دون أن يطلب أحدهما اهتمام الآخر. تلك البداية التي تنحصر بها الحياة في الأوقات التي يمضيانها معًا، فينسيان الأهل ويمسحان الماضي والمستقبل، ويتركان الدِّراسة، ويتجنَّبان الأصدقاء. تلك البداية التي تبدو فيها علاقتهما الأبديَّة أمرًا محسومًا. تلك البداية التي تمتلئ فيها أرواح المحبِّين بشغف متزايد وشوق مُلِحٍّ للَّمس والكلام والإسرار والإعلان. تلك البداية التي يستأذن بها العقل بالخروج من الذات فيُؤذن له، فيصبح

العقل كالممثِّل القدير في مسرحيَّة طويلة، يتابع المشهد الأول منها من خارج المشهد، ويقف في الكواليس منتظرًا أن يأتِيَ دوره في المشهد الثَّاني ليبدع.

تابَعَا سيرَهما وقفزَا إلى ملعب كرة القدم. كانت السَّاعة تقارب الواحدة فجرًا. مشَيَا على الحشيش الصِّناعي حتَّى توسَّطَا الملعب، تمامًا على النُّقطة التي توضع بها الكرة بعد تسجيل الهدف. استلقَيَا متعاكسَيْن، وضع الشَّاب رأسه على كتف الفتاة، وفعلت هي كذلك وتلامست أذناهما.

صارت قبلتهما الأولى تحوم فوقهما تنتظر الهبوط الذي أصبح شبه مؤكَّد. صمَتَا قليلًا وهما يحدِّقان إلى السَّماء، بعدها بدأ الكلام باستهزاء وضحك، حيث استذكر الشَّاب مشهدًا مماثلًا من فيلم الرُّسوم المتحرِّكة «الأسد الملك». ودار حديث تعارف النَّفس بالنَّفس وسقطت محاولات التجمُّل والانبهار والإبهار.

في منتصف الكلام الأقرب إلى طرفه الأخير، قال الشاب: «كم أحنُّ إلى زمن النفاق الجميل!».

قالت بصوت من استغرب ما قد سمع: «عفوًا؟ ماذا قلت!».

- أتدرين!؟ لقد حدَّثَنا رجال الدِّين عن النِّفاق وحذَّرونا منه ومن عقابه الموعود.

- وكيف تحنُّ إليه؟

- كان المنافق آنذاك يبدي حقيقة ويخفي عن النَّاس حقيقة أخرى، وبذلك يكون بحقيقتين أو هويَّتين محددتَيْ المعالم. أما الآن أشعر أنَّنا قد تكاثرنا في داخلنا، لم نعد نحتمل ذلك العدد المتزايد من هويَّاتنا التي ذاب الفرق بينها. اختلطت علينا المعايير والمصادر المتناقضة التي تُعين المرء على أن يحدِّد موقفه مما يجب أن يُصنِّفه كخير وشر. أصبحنا نقارب كُلَّ موضوع بهويَّة منفصلة بحسب المصدر الذي نتبنَّاه لدراسته. يدخل في مصادرنا كلُّ ما تعرَّضنا إليه من علم حديث قد يبدو أنَّه ينافي دينًا ما، أو من فنٍّ جميل قد ينافي كليهما. هذا بالإضافة إلى أصدقاء عاشرناهم من شتَّى بقاع الدُّنيا ومن مختلف حضاراتها، ومعلِّمين منهم أصحاب الخُلُق الرفيع، والحكماء والملحدين والملتزمين، هذا وغيره مما قدمت به الدُّنيا بمصادرها المختلفة، وعرضتها علينا داخل بيوتنا وهواتفنا التي لا تفارق أيدينا. من منَّا ما زال يستطيع أن يميِّز إن كان ديِّنًا أو علمانيًّا، منفتحًا أو متزمِّتًا، عقلانيًّا أو عاطفيًّا، فرديًّا أو اجتماعيًّا، شرقيًّا أو غربيًّا. أصبحنا متناقضات مختلفة تجمَّعت فينا وقد تكاثرت هويَّاتنا على عددها. أعتقد أن النفاق آنذاك يحتاج إلى هويَّة محددة المعالم لا نملكها اليوم، وكيف

لنا ألَّا نَحِنُّ لزمن النِّفاق البسيط الذي يتراوح فيه المرء بين هويَّتين فقط؟

كان الفتى يدرك أن لديه سحر الكلام وقدرة مميَّزة على أن يتفاعل بكل تفاصيل صوته وأطرافه وجسده مع ما يقوله من كلام، خاصَّة حين يكون صادقًا فيه. وقد اعتاد بتلك القدرات أن يكون آخر من تكلَّم وأوجز وأقنع، ولا يسع المستمع إلَّا أن يهمس بالموافقة وينتقل بالحديث إلى منحى آخر. وجاء ردُّ الفتاة كمفاجأة لم يتوقَّعْها ولم يعتَدْها.

ردَّت الفتاة بصوت فيه نوع من خيبة الأمل، وكأنَّها كانت تتوقَّع أن تُستثمر تلك اللَّحظة الرُّومانسيَّة والمشهد الغرامي بشكل مختلف تمامًا إلَّا أنَّها مع ذلك انخرطت بالحديث.

قالت: «أعتقد أنَّك مخطئ!».

رنَّت كلماتها القليلة في أذن الشَّاب واستثار فيه شغف الإنصات والكلام معًا. رأت هي ذلك فأتبعت: «هل سبق أن شاهدت عروض الضَّوء الحديثة؟».

قال: «رأيتها مؤخَّرًا في الاحتفالات، وما الرَّابط بين النِّفاق والمصادر المتناقضة وبينها؟».

- أنت، بما تمثِّل ممَّا قد نسمِّيه الإنسان المعاصر، تمامًا مثلها، إذ يحدث العرض على شاشة أو مسطَّح بلون

أبيض، يملؤه لا شيء. ويبدأ العرض الأخَّاذ، فتتساقط أحزمة النُّور على ذلك المسطَّح وتملؤه حياة تشدُّ الأبصار والأذهان. الرَّابط أنَّك إذا تراجعت بنظرك لترصد مصادر انبعاث الضوء لوجدتها موضوعة في أمكنة مختلفة على مسافات وأبعاد وارتفاعات وانخفاضات مختلفة تمامًا. ليس هذا فحسب، بل إنَّك إذا دقَّقت النَّظر أكثر لوجدت أن كُلَّ مصدر من مصادر النُّور متخصِّصٌ بلون أو صورة أو شكل هندسي معيَّن يلقيه على مسطَّح العرض، ولا يلقى هذا الشَّكل أو اللَّون مصدرًا سواه.

يصبح السُّؤال: هل نستطيع أن ندَّعِيَ أن التَّناقض الواضح بين المصادر المختلفة يفسد الصُّورة المكتملة؟ بالطبع لا، بل على العكس، لو تفرَّد مصدر واحد أو اثنان بالضَّوء لأصبح العرض مملًّا فقيرًا. إن الشَّتات والتَّكاثر الدَّاخلي الذي وصفته خطأً بالنِّفاق، ما هو إلَّا ضيق نظر وتركيز على المصادر المتناقضة.

إنَّك يا عزيزي المسطَّح المملوء بحياة غنيَّة. هذا، وإن اختلفت ألوانه وتباينت بين الحين والآخر، إلَّا أنَّه متناغم وواحد، وهو نتيجة امتزاج الألوان والأفكار والأحلام والوقائع والقراءات والأيديولوجيَّات والحضارات والأشخاص والمشاعر المختلفة التي تعرَّضت لها.

إنّك يا عزيزي مزيج الشَّرق والغرب والدِّين والعلم والفن والحب والجرح والطُّفولة والحزن والصداقات. إنَّك، بما تمثِّل، كلوحة فسيفساء تُرى عن بعد، ولست أنت فُتات الحصى الصَّغير الذي يشكِّلها عن قرب، فلا تمعن التَّفكير في مصادر الحصى وتدع جمال اللَّوحة يفوتك.

أدرك الشَّابُّ أنَّه على شفير الحب، وأجاب مطأطئًا رأسه على غير عادته: «سأحاول، ولكنَّ ليس الأمر بهذه الـ...». وقاطع نفسه فجأة قائلًا: «انظري! لقد تلاشى الظَّلام وابيضَّ اللَّيل، هيَّا بسرعة، علينا أن نذهب».

وبدا في عجلة غريبة وكأنَّها مصطنعة وغير مبرَّرة لم تفهمها الفتاة. أمسك يدها ومشَيَا باتِّجاه البوَّابة الرئيسيَّة للجامعة ولَفَّ صمت الفجر مشوارهما وكأنَّهما يحادثان نفسيهما.

قالت الفتاة في سرِّها: «*ما هذا الشَّاب الغريب؟ كيف أضاع على نفسه فرصة القبلة الأولى؟ كيف صرف تلك اللَّحظة الرُّومانسيَّة الكاملة في نقاش عن النِّفاق؟*».

«مهلًا!» قالتها في نفسها كمن اكتشف أمرًا خطيرًا: «*هل هذه هي المرَّة الأولى التي يفسد فيها مثل تلك الفرصة؟ أعتقد أنَّ هذه ليست المرَّة الأولى التي يحجب بها سقوط قبلتنا الأولى!*».

قال الشَّاب في سرِّه وكأنه يسمع ما يدور في رأسها: «كم *أتوق إلى القبلة الأولى ولكن صدِّقيني كثيرًا ما تكون تلك القبلة إعلان انتهاء مرحلة البداية الجميلة، كثيرًا ما تكون هي النُّقطة الَّتي يليها النُّزول عن قمم الشَّغف والمتعة والشَّوق*».

مشى مزهوًّا بإنجازه، لقد نجح في تأجيل نهاية البداية مرَّة أخرى. وشعر وكأنَّه ينظر إلى عقله، ذلك الممثِّل القدير المنتظر خلف كواليس مشهد بداية الحب، قائلًا له: «*انتظر قليلًا بعد، أمهِلْنا بضعة أسابيع أخرى من السَّعادة التي تسبق الحب. انتظر قليلًا بعد، عاجلًا أم آجلًا سيأتي مشهدك وتدور به فينا بين قلقك وغيرتك، ذاكرتك وتجاربك، وأحكامك، وخوفك من المجتمع والمستقبل وأسئلة أخرى ستحيل مشهد البداية الرائع الى مشهدٍ درامي مؤلم. انتظر يا عقل قليلًا بعد...*».

ارتسمت على وجه الشَّاب بسمة المنتصر في معركة يدرك أنَّه سوف يخسرها، ولكن ليس الليلة.

قصَّة بسيناريوهين!

فيما يلي قصَّة بسيناريوهين انفصلَا في لحظة معيَّنة وكانت نتيجة انفصالهما ما سوف ترى...

السِّيناريو الأوَّل:

قرابة السَّاعة التَّاسعة من صباح يوم سبت شتاءٍ ما، دنت يد أمٍّ من وجه ابنها الغارق في النَّوم، وطرقت بِرِقَّة على وسادته. كانت هذه عادتها عندما تريد أن توقظه من نومه، فهي لا تلامسه مخافة أن تزعجه لمساتها أو تفزعه، بل تُربِّت على الوسادة جانب أذنيه وتنادي باسمه. وبعد محاولات قليلة يفتح الابن عينيه.

قالت الأم: «أُصحُ، ألم تشتَق إلى أن تمضِيَ ساعات الصَّباح الأولى في بيت جدِّك وجدَّتك؟ لقد اشتاقَا إليك كثيرًا، فهذه نهاية الأسبوع الثَّالث مذ أتيت من المدينة ولا تراهما».

فردَّ الشَّاب بخجل من غيبوبة نعاسه، وكان يتوقَّع أن يستيقظ على هذا الطلب: «وأنا اشتقت لذلك، أمهليني بعض الوقت ونذهب معًا».

تركته الأم وراحت تتجهَّز لتذهب مع ابنها إلى منزل أبويها.

قبل أن يكتمل استيقاظ الشَّاب، تناول هاتفه الذَّكي من فوق الطَّاولة التي وضعت قرب السَّرير لتحمل الهاتف. استعانت عينا الشَّاب بنور شاشة الجوَّال لتزداد اتِّساعًا وليكتمل استيقاظه. بدأ بإرسال واجب «صباح الخير يا حبيبتي» إلى امرأة على الطَّرف الآخر من الهاتف، كانا قد اعتادَا ذلك منذ سنين.

تعدّ على أصابع اليد الواحدة، الأيَّام التي لم يستيقظَا فيها بهذا الطقس. بعد ذلك، اضطجع في سريره يتصفَّح شبكات التَّواصل الاجتماعي بلا هدف ولا سبب بل بحكم العادة ليس إلَّا. وهو في منتصف تصفُّحه، عادت أمُّه وقد انتهت من وضع حوائجها في حقيبة صغيرة ليومٍ كامل. ولكنَّها عادت أكثر قسوةً هذه المرَّة، سحبت الغطاء عن ابنها دون إنذار وسحبته خارج السَّرير وأمرته أن يجهِّز نفسه.

تجهَّز الابن بسرعة دون أن يتخلَّى عن هاتفه، فهو ينتظر أن يكتمل الطقس الصَّباحي وتأتيه رسالة حبيبته: «أنت الصَّباح

وأنت الدُّنيا»، بعدها فقط يبدأ النَّهار بشكل سليم. لكنَّها تأخَّرت، إذ كانت تتوقَّع أن يَمُدَّ في نومه فلا دوام جامعة يوم السَّبت.

بعد أن تجهَّزَ وأمُّه، خرجَا من المنزل راكضين خوف المطر وساعد أمَّه لتركب السيَّارة ودار حولها وهو يحمل حقيبة أمِّه ليضعها في صندوق السَّيارة الخلفي. في تلك اللَّحظة، سمع صوت الرِّسالة القصيرة ينطلق من هاتفه الَّذي في جيبه، حاول أن ينتشله ليرى إذن بداية اليوم مع رسالة الحبيبة، فانزلق الهاتف من يده وسقط في وسط حفرة ماء غير عميقة، انتشله بسرعة الملهوف من الماء ونظر إلى شاشته فوجدها مظلمة بلا حياة، لقد تعطَّل الهاتف...

ركب السَّيارة حاملًا هاتفه الميِّت وقد أصابه التوتُّر ونوع من الحزن كمن فقد أحد أطرافه. أوصل أمَّه إلى بيت الجدَّة والجدِّ وذهب مستعجلًا لكي يصلح هاتفه بأسرع وقت ممكن. أخبر فنيّ التصليح بما حدث فتفحَّص الهاتف وأخبره أنَّه لن يجهز قبل سبع أو ثماني ساعات. عجز أن يستحوذ على هاتف آخر رغم محاولاته، وأخيرًا اضطرَّ غير باغٍ إلى أن ينتظر تلك السَّاعات بغير هاتف، ولحق بأمِّه لينتظر هناك.

طرق باب بيت أهل أمِّه ففتح له جدُّه وهو قصير القامة بعض الشيء، وعانقه وعاتبه على غيابه الطَّويل بِرِقَّة الحكيم المتفهِّم لمشاغل الشَّباب.

دخلَا مباشرةً إلى المطبخ الواسع في البيت العتيق المجدَّد. كان هذا مركز صباحهم الباكر. كانت الجدَّة قد جلست على أريكتها المخصَّصة لها، وفي فمها ليّ نارجيلتها العجميَّة، وكانت أم الشَّاب تنتظر نارجيلتها التي كان يحضِّرها لها أبوها احتفاءً ولكنَّه قد تركها ليفتح الباب لابنها. عانق الشَّاب جدَّته بشدَّة فقد اشتاق إلى حديثها بالفعل، فبدأت بعتاب أشدَّ قسوة وأقل تفهُّمًا من عتاب زوجها. قالت: «لقد سرقتك منَّا بنات الجامعات الجميلات، هذا اليوم الـ24 الذي لم نرَك فيه. ألا تسأل عن جدَّتك وجدِّك؟».

فقال الجدُّ -وكأنَّه قد ذُكِّر أن عتابه كان أقلَّ ممَّا ينبغي-: «يا جدِّي نحن فاكهة مولَّاة!».

قالها بلهجته المحكيَّة القديمة وهو يعني بها أنَّهم فاكهةٌ في أواخر موسمها وسوف ترحل عمَّا قريب. هذا مثل شعبي قارَبَ على الاختفاء إذ لم تعد في عالمنا الحديث مواسم تُبدي الفاكهة وتُنهيها. أصبحت كلُّ الفاكهة موجودة طوال العام ولا تغيب، وبذلك كان الحفيد الشَّاب لا يستشعر الرَّابط بين ذلك المثل وغياب الجدِّ، أو كان ينكر تلك الحقيقة.

تلعثم الشَّاب قليلًا قبل أن يجيب ثم أردف قائلًا: «أطال الله عمركما ولكنَّها مشاغل الجامعة ولهو المدينة الكبرى».

وما إن ذكر الجامعة ومشاغلها حتَّى حلَّت بذهنه تلك الحبيبة التي لا تدري قصَّة الهاتف الذي تعطَّل. وزاد توتُّره فجأة وأصابه شيء يشبه خوف القوي من الضعيف. فحبيبته يصيبها رُعاش الغيرة وتلامس طرف الجنون في ردَّة فعلها إن غاب عن هاتفه أو اختفت رسائله القصيرة. تلك الرَّسائل التي تعلم هي من خلالها كلَّ حركاته وسكناته وترصد تغيُّر شعوره تجاهها مع كلِّ لحظة، كالكيميائي الذي يضع مؤشِّر الحرارة في تفاعله ويجلس مترقِّبًا زيادة الحرارة أو نقصانها مع مرور الوقت، أو كرجل دين فطن يلحظ ارتفاع إيمان أتباعه أو انخفاضه مع كلِّ همسة يهمسون بها.

كان في علاقتهما نوع من التملُّك والاستئثار ولم يكونا يكرهان ذلك في معظم الأوقات. كانا يعتبرانه برهانًا على الحب القديم المفعم بالعواطف المجنونة الصمَّاء التي لا تتفهَّم ولا تُدرك، فهي بلا عقل تريد كلَّ كيان الشَّريك حكرًا لها، بعكس الحب المستجدِّ الذي يملؤه التفهُّم العقلاني واحترام الكينونتين المنفصلتين.

أسرَع بالاستئذان من مطبخ الجدَّة، واستعار هاتف أمِّه، وخرج به إلى غرفة إحدى خالاته التي كانت قد ذهبت إلى عملها. استلقى على السَّرير وواجه سقف الغرفة بعينيه وخابر حبيبته، ودار بينهما حديث سريٌّ، نفضحه فيما يلي من سطور.

قالت له في دلع ومزاح يمتزجان برسالة خفيَّة ملطّفة: «صباح النُّور يا غائب، أين أنت؟ تنساني عندما تكون في أحضان أمِّك، وتكلِّمني بكل جرأة من هاتفها، هذه خيانة!».

ردَّ عليها بصوت جدِّيٍّ وهو يحاول أن يَحُدَّ من تماديها في المزاح بموضوع أمِّه التي يقدِّسها بكل معنى الكلمة: «صباح الخير يا حبيبتي، نعم لقد تعطَّل هاتفي».

وأكمل القصَّة مع بعض التفاصيل لكي يؤكِّد لها -دون أن تشعر- أنَّه صادق.

وأتبع قائلًا: «لا أدري كيف سيمرُّ وقت زيارة الجدِّ والجدَّة بلا هاتفي بين يديَّ».

قالت: «لماذا تشعر أن الزِّيارة سوف تطول؟».

فحدَّثَها بما يخجل المرء أن يحدِّث به نفسه: «أنا أحبُّهما بالفعل، ولكنِّي أشعر أنَّني أصبحت غريبًا عنهما. هما يتحدَّثان في أمور وقصص وروايات لا تعنيني ولا ترتبط بخاطري مهما حاولت. ويتعبني التَّظاهر لوقت طويل بأنِّي أهتم فعلًا لحواديت ذكرياتهما وأن أُمثِّل التَّفاعل مع نصائحهما التي لم تعد تحاكي زمننا ولا حياتنا. كلُّ ما يهمُّني أن أطمئنَّ على صحَّتهما وأن أُطَمئِنَهما على أحوالي، وبعد ذلك أجلس معهما بجسدي، ولكنِّي أنفذ من خلال جوَّالي إلى عالمي... ومن حين لآخر، أجاوب

مستعينًا بما تبقَّى من ذهني حاضرًا، وأحيانًا أخرى أتفوَّه بنعم أو كلَّا ردًا على سؤال يبدأ بـ «كيف». يمرُّ الوقت بشكل أو بآخر حتَّى يرهق أحدهما الجلوس ويطلبه فراشه للرَّاحة، فأهمس لأمِّي وأتسلَّل خارجًا وأعتبر أني قمت بواجبي وأخمدت سبب العتاب إلى الزيارة القادمة، لكنِّي بالفعل لا أدري ماذا سوف أفعل اليوم بلا هاتف!».

قالت: «سيمرُّ الوقت يا حبيبي، اجلس واستمع وتحدَّث، ساعتان وتمضيان».

وأقفلَا هاتفيهما بعد أن تودَّعا وتواعدَا على اللِّقاء في المساء. أقفل هاتفه وهو يفكِّر في السَّاعتين الواجبتين عليه، وخطرت بباله فكرة أن ينام ليقلِّص الوقت، وما إن تلامست أجفانه حتَّى اقتحم جدُّه عليه الغرفة المفتوح بابها قائلًا: «قم فساعدني في تحضير الفطور».

قام الشَّاب متثاقلًا مبتسمًا وقد أدرك أن ليس له مفرٌّ اليوم من جلسة لا تشبهه، ومن دون هاتفٍ يقلِّص تلك الفجوة ويطوي الوقت.

رافق الحفيد جدَّه إلى مطبخ الصُّبحيَّة، قالت الجدَّة مخاطبةً زوجها: «حضِّر لنا طبق فولك الشَّهير... ولكن باللّه عليك رفقًا بالدُّنيا، لا تقلبها رأسًا على عقب في سبيل هذا الطبق».

ابتسم الجدُّ في خلسة وهو ينظر إلى حفيده قائلًا له مناكفًا زوجته: «تعالَ وقطِّع لي ليمونتين لئلا تتَّهمني جدَّتك بجرح رخامة المطبخ».

قام الحفيد التَّائه المفتقد لذكاء هاتفه، وأمسك بالسِّكين وهَمَّ بقطع اللَّيمون في طبق، فرأى يد جدِّه وفيها إصبعان مفقودتان. قال محادثًا نفسه: «*لقد كبرت وأنا أرى يده بهذا الشَّكل، كيف يعقل أنِّي لم أسأله حتَّى الآن كيف تقطَّعت إصبعاه؟*». ثم جاوب نفسه سرًّا مبرِّرًا لها: «*إنَّه قد أمضى معظم شبابه جزَّارًا، أغلب الظن أنَّه قد قطعهما بسكِّين وهو يقطع اللَّحم لزبون مملٍّ أو لزبونة جميلة*». وتابع في سرِّه لائمًا نفسه: «*حتَّى وإن كانت* هذه هي *القصَّة بالفعل، كيف لم أُعطِ جدِّي قبل هذا اليوم* مرح *إخباري بقصَّة أصابعه المبتورة*».

قال الحفيد وقد بدأ يشعر بالمكان الذي هو فيه، كمريض يستفيق ويعود بعد غيبوبة بنج غرف العمليَّات: «كيف فقدت إصبعيك يا جدِّي، هل قطعتهما بسكينك، هل انتقمَت منك الأقدار بما فعلته في رقاب الخراف والأغنام؟».

استنارت وجنتا الجدِّ وبرقت عيناه، نظر إلى حفيده وقد بدا عليه رغم سروره، أنَّه قد اعتبرها إهانة، التقت شفته السُّفلى بين ما تبقَّى من أسنانه وحوَّل رقبته في إشارة متكاملة تنطق قائلةً: «هذا باطل، كيف لك أن تتفوَّه بمثل هذا!».

الجدُّ: «هل يمكن لمثلي أن يقطع أصابعه بسكِّين؟ إنَّها تلك الماكينة الحمقاء التي تعمل بالكهرباء».

الحفيد: «أي ماكينة، وكيف ذلك؟».

- ماكينة فرم اللَّحمة الكهربائيَّة. كُنَّا قبل أن نشترِيَها نفرم اللَّحم على ماكينة تدار باليد، تدفع فيها اللَّحم بيد وتدير مقبضًا باليد الأخرى، وبذلك فإنَّه يستحيل أن تلامس أصابعك شفراتها الحادَّة، لأن يدك الأخرى هي التي تديرها، فهي جزء منك تتفاعل وتتحرك وكأنها يدك تصدر أنت الأمر لها من دماغك فتدور. أمَّا تلك الكهربائيَّة الحمقاء، التي اشتريناها وإخوتي لتفرم لحمة الزبائن بسرعة أكبر وبمجهود أقل، فما إن تضعها في الكهرباء حتَّى تدور شفراتها كالقطار أو البهيم المذعور الذي لا يتوقَّف، فهي ميِّتة لا ترتبط فيك، ولا تفرِّق إن كانت تُقطِّع أصابعك أم اللَّحم الذي فيها. كم تغرُّ مظاهر الأشياء، إن ماكينة اليد رغم سكونها فيها حياة أكثر من الماكينة الكهربائيَّة رغم حركتها وصخبها.

فضلًا عن أنَّه اكتشف أنَّه لا يعلم قصَّة أصابع جدِّه، فقد استحوذ كلام الجدِّ وتشبيهاته على كامل اهتمام الحفيد. كان في الحفيد بعض الميل إلى البعد الفلسفي لعلاقة الإنسان بالتطوُّر التِّكنولوجي والطِّباع المكتسبة أو المندثرة إثر هذه

العلاقة الديناميكيَّة جدًّا. وما إن كاد يسرح بذهنه -لِمَا قال جدُّه العجوز، الذي لا يعرف الكتابة والقراءة- إلَّا أن وَخَزَهُ الآخرُ بيده القاسية طالبًا اللَّيمون الذي قطَّعه الحفيد ليضيفه على طبق الفول.

اكتشف الجدُّ أن الحفيد قد قطَّع ليمونتين اثنتين كما كان قد طلب منه، فقال ممتعضًا: «إيَّاك أن تفعل هذا ما حييت».

أجاب الحفيد مستغربًا النَّصيحة في غير موضعها: «إيَّاي أن أفعل ماذا؟».

- أن تعطِيَ تمامًا على قدر ما سئلت، إن هذه صفة الجبناء.

ردَّ الحفيد وهو يستفزُّ الجدَّ ليسمع منه أكثر وليعرفه أكثر وقد بدأت الحياة تتراوح بينهما كالنُّور العابر للزَّمن: «تقصد البخلاء!».

- بل أقصد الجبناء، أولئك الذين يخافون تقلُّب اللَّيالي فيعيشون أسرى ما يحسبون ويحاسبون، أولئك لا يدركون عِزَّ الدنيا ولا الآخرة. إنَّ الكرم صفة الرِّجال الشُّجعان الذين لا يهابون الدَّهر ويثقون بالله وبأنفسهم وبالنَّاس وبالدُّنيا، ولم أرَدُ في حياتي الطويلة يخذل أحدًا منهم. إنَّ الكرم يستر العيوب ولا يحترم البخيل حيث حَلَّ، لا في بيته ولا مع زوجه ولا في بلده والعياذ بالله.

بدا التَّواصل بين الاثنين وكأنَّه يمحو هوة الزَّمن التي تفصلهما، فقال الحفيد: «تفضَّل هذه أربع ليمونات، ليست لديك حُجَّة الآن، لنرَ براعتك في الفول الذي طال انتظاره».

وضعَا الفطور وجلسَا مع الجدَّة والأم إلى طاولة الطَّعام، ودار حديث تشعُّ منه الحياة وتنتشي به الأرواح الوحيدة المستوحشة، ومرَّت الذِّكرى تلو الأخرى، إلى أن ذكر الجدُّ أخًا له خسر أصابعه أيضًا بالماكينة الكهربائيَّة تلك، كأنَّها قد اختُرعت لتسحق أصابع العائلة. كان هذا الأخ سريع الغضب، حادَّ الطبع، وتابع الجدُّ واصفًا حكايات أخيه المجنون والمزهو بقُوَّة شبابه: «كان لا يمرُّ يومان متتاليان إلا وضرب أحد مارَّة الطريق أو زبائن الملحمة». وكان روتين الجدِّ آنذاك، الذي هو الأخ الأكبر، أن يخفِيَ السكاكين كُلَّما تعالت صيحات أخيه، ويُحضِّر نفسه ليذهب ويعتذر من ذوي المضروب. وقد يحدث ألا ترضِيَهم زيارة الأخ الأكبر، فكان يستعين بزعيم كان يراه نَبِيَّ ذاك الزَّمان.

وما زال الحفيد يستمتع بلهفتين، واحدة للأكل والثانية للنَّيْل من تلك الصَّداقة الجديدة التي كانت فرصها تمرُّ يومًا بعد يوم وهو لا يغتنمها ولا يعطيها حق قدرها.

مرَّ الوقت بسرعة ونسي الحفيد هاتفه. ومرَّت السِّنين بالسُّرعة نفسها، ووَلَّى الجدُّ كالفاكهة الموسميَّة، وحزنت

الجدَّة، وبقيت ذكرى ذلك اليوم على قيد الحياة. ظلَّت اللحظة، التي ابتسم فيها الجدُّ للحفيد وهو يناكف زوجته، خالدة في ذهن الحفيد، تزوره كُلَّما ذُكر الجدُّ، وتغصب شفتيه على التبسُّم وعينيه على البكاء في شعور متناقض يبرِّر بسمة الذِّكرى ودمعة الاشتياق.

السِّيناريو الثَّاني:

بدأ السِّيناريو الثاني تمامًا كما بدأ الأول، لكنَّهما افترقا في لحظة معيَّنة، وكان لانفصالهما ما سوف ترى...

قرابة السَّاعة التَّاسعة من صباح يوم سبت شتاءٍ ما، دنت يد أمٍّ من وجه ابنها الغارق في النَّوم، وطرقت بِرِقَّة على وسادته. كانت هذه عادتها عندما تريد أن توقظه من نومه، فهي لا تلامسه مخافة أن تزعجه لمساتها أو تفزعه، بل تُربِّت على الوسادة جانب أذنيه وتنادي باسمه. وبعد محاولات قليلة يفتح الابن عينيه.

قالت الأم: «أُصحُ، ألم تشتَق إلى أن تمضِيَ ساعات الصَّباح الأولى في بيت جدِّك وجدَّتك؟ لقد اشتاقَا إليك كثيرًا، فهذه نهاية الأسبوع الثَّالث مذ أتيت من المدينة ولا تراهما».

فرَدَّ الشَّاب بخجل من غيبوبة نعاسه، وكان يتوقَّع أن يستيقظ على هذا الطلب: «وأنا اشتقت لذلك، أمهليني بعض الوقت ونذهب معًا».

تركته الأم وراحت تتجهَّز لتذهب مع ابنها لمنزل أبويها.

قبل أن يكتمل استيقاظ الشَّاب، تناول هاتفه الذَّكي من فوق الطَّاولة التي وضعت قرب السَّرير لتحمل الهاتف. استعانت عينَا الشَّاب بنور شاشة الجوَّال لتزداد اتِّساعًا وليكتمل استيقاظه.

بدأ بإرسال واجب «صباح الخير يا حبيبتي» إلى امرأة على الطَّرف الآخر من الهاتف، كأنَا قد اعتادا ذلك منذ سنين.

تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، الأيَّام التي لم يستيقظَا فيها بهذا الطقس. بعد ذلك، اضطجع في سريره يتصفَّح شبكات التَّواصل الاجتماعي بلا هدف ولا سبب بل بحكم العادة ليس إلَّا. وهو في منتصف تصفُّحه، عادت أمُّه وقد انتهت من وضع حوائجها في حقيبة صغيرة ليومٍ كامل. ولكنَّها عادت أكثر قسوةً هذه المرَّة، سحبت الغطاء عن ابنها دون إنذار وسحبته خارج السَّرير وأمرته أن يجهِّز نفسه.

تجهَّزَ الابن بسرعة دون أن يتخلَّى عن هاتفه، فهو ينتظر أن يكتمل الطقس الصَّباحي وتأتيه رسالة حبيبته: «أنت الصَّباح وأنت الدُّنيا»، بعدها فقط يبدأ النَّهار بشكل سليم. لكنَّها تأخَّرَت، إذ كانت تتوقَّع أن يَمُدَّ في نومه فلا دوام جامعة يوم السَّبت.

بعد أن تجهَّزَ وأمُّه، خرجَا من المنزل راكضين خوف المطر وساعد أمَّه لتركب السيَّارة ودار حولها وهو يحمل حقيبة أمِّه ليضعَها في صندوق السَّيارة الخلفي. في تلك اللَّحظة، سمع صوت الرِّسالة القصيرة ينطلق من هاتفه الَّذي في جيبه، حاوَلَ أن ينتشله ليرى إذن بداية اليوم مع رسالة الحبيبة، فانزلق الهاتف من يده وسقط بجانب حفرة ماء غير عميقة،

انتشله بسرعة الملهوف، نظر إلى شاشته فوجده يعمل كعادته فاطمأن. لم يتعطَّل الهاتف...

ذهب وأُمّه إلى بيت أبويها واطمأنَّ عليهما وطمأَنَهما على نفسه ونفذ من خلال هاتفه إلى حياة تشبهه. ومضى وقت الزيارة بسرعة ومضت السنين بسرعة، ومات الجدُّ واحتزنت الجدَّة، ولم يبقَ من ذلك اليوم شيء يُذكر.

بين الغريب والسائد

تترنَّح المجتمعات بين الغريب والسائد كما يترنَّح المتزلِّج البارع الذي ينزلق نزولًا، يميل تارة إلى أقصى يمينه ثم يميل من فوره إلى أقصى يساره تاركًا أثرًا متَّصلًا معوجًّا يشبه أول رسم الأطفال لموج البحر. يصعب على المتزلِّج نفسه في لحظة ما أن يرى أنَّهما متصلان، بل يراهما متناقضين أو منقطعين. كذلك تعجز المجتمعات أن ترى أن الغريب والسائد متَّصلان في الزمن وليسا متناقضين. فغريب الأمس سائد اليوم، وقد يصبح سائد اليوم غريب الغد.

طبيعيٌّ أن يسترسل الإنسان ويستطرد في وصف الماضي بدقَّة مستعينًا بالذاكرة، في حين أنَّه يعرّج على المستقبل بشكل سريع غير دقيق مستعينًا بالخيال. علاوةً على ذلك، فإن طول الزمان أو بركته، كما يسمِّيها البعض، يبدو وكأنَّه يتقاصر يومًا بعد يوم، فيكون المستقبل بأحداثه أقصر وأسرع من الماضي.

لذلك كلّه، قد تتسارع الأحداث في نقطة من الزمن في قصّتنا الخياليَّة التالية التي سنرويها متراوحين بين الماضي والمستقبل.

ثورة الغريب على السائد...

قصّة من نسج الذاكرة والخيال والحب والحلم والخوف والقلق:

غدًا صباحًا، في مكتب إحدى الشركات العالميَّة الواقعة وسط إحدى عواصم البلدان العربيَّة الأكثر انفتاحًا نسبيًّا، طرقتْ باب مكتب قسم الموارد البشريَّة موظَّفة في السابعة والثلاثين من عمرها، حسناء عنقاء فارعة الطول ترتدي فستانًا فضفاضًا يلامس اللون الأخضر. بعد أن أُذن لها بالدخول، راحت تتمايل وتتهادى ببطء بين الباب والكرسي وقد أثقلها حملها الذي قارب على الانفجار كقنبلة غير موقوتة لا يدري أحد موعدها بدقَّة لكنَّه يبدو الآن.

استقبلتها مسؤولة القسم، وقالت بعد أن ردَّت عليها تحيَّة الصباح: «حان وقت الولادة يا صديقتي؟».

قالتها بغير تكلُّف حيث إن الاثنتين كانتا تعملان في الشركة لأكثر من عشر سنوات.

ردَّت الموظَّفة من فوق بطنها المنتفخ: «نعم، لقد حان، ترجِّح طبيبتي أنِّي سأَلِدُ الأسبوع القادم، فقررت أن أبدأ إجازة الأمومة من اليوم».

ابتسمت مسؤولة القسم وأومأت بالموافقة المتوقَّعة. قالت لها وهي تحاول أن تجد ورقة أضاعتها على مكتبها: «بالسلامة إن شاء الله!». وبعد أن يئست من أن تجد ورقتها، أسدلت نظَّارتها عن جبينها إلى أنفها ونظرت من خلالها إلى حاسوبها. ثوانٍ وتصاعد صوت حفحفة ورق من قلب الطابعة الصغيرة في زاوية الحجرة. نهضت من وراء مكتبها وانتشلت الورقة من فم الطابعة وناولتها للحسناء الحامل، وفي جوفها حسد وشفقة وسألتها أن توقّع.

دفعت الصبيَّة الحامل مسكتَيْ كرسيها نزولًا لتساعد نفسها على الانتصاب، وقالت مودِّعةً مسؤولة الموارد البشريّة: «أراك بعد ثلاثة أشهر تقريبًا إن شاء الله». قالتها بهدوء الخبير، فهذا ليس وليدَها الأوَّل، فقد كان لها ولدان من زوجها الأوَّل.

ردَّت عليها المسؤولة: «وسيكون موقعك بانتظارك إلى أن تعودي بسلام إن شاء الله، وسوف أطمئن عليك وأرسل إليكِ سلاماتي مع الأستاذ وسيم».

هزَّت رأسها وقالت ممازحةً: «سوف يكون على وسيم أن يساعدني، بالله عليك لا تدقِّقِي عليه إذا تأخَّر في الأسبوع الأوَّل».

أجابتها قائلةً بابتسامة: «لا تقلقي سوف أغضُّ الطرف عن الأستاذ وسيم إذا ضمنت لي أنَّه يساعدك بالفعل».

الأستاذ وسيم هذا هو زوج الحسناء الثاني. شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، شديد الذكاء، متوسِّط الجمال، ليِّن اللسان، دقيق الملاحظة، مبالغ الثقة بالنفس، مملوء بالحياة، لم يخفت نور جنونه بعد. كان قد توظَّفَ وسيم في الشركة منذ قرابة خمس سنوات، بعد أن عاد من غربة ثلاث سنوات في أوروبا. كانت حكاياته لا تنتهي، وكان يبدع في تواصله مع كلِّ موظفي الشركة وزبائنها.

ما إن تلاقى الوسيم والحسناء حتى اعتراهما قلق يتنبَّأ بالخطيئة. دار بينهما حديث داخلي لم يصل إلى الشفاه، مفاده من ناحية الحسناء: «أنا امرأة متزوِّجة»، ومن ناحية الوسيم: «أنا رجل ذو قِيَم وخلق». راحَا -كلٌّ داخل نفسه- يبنيان بينهما ردمًا يعلو بالليل حين يأويان إلى حياتهما المنفصلة، ويتناقص في النهار حيث يجتمعان على قهوة الصباح، بمصادفة تتحوَّل إلى روتين أو باجتماع مختلق يقنعان نفسيهما أنَّه في مصلحة العمل والشركة.

يصعب على الإنسان أن يخُطَّ حدود علاقته بمن لم يُبدِ نيَّة صريحة باجتياز تلك الحدود. كيف ولماذا يضع سورًا يمنعه ممن لم يقم بفعل أو يهمس بكلمة تشير إلى أنَّه يتربَّص ليتخطَّى حدوده؟ أليس من الغباء بناء الأسوار في وجه الذين يبنون الأسوار؟ إنَّها كحرب طرفاها يدافعان فقط. بدا ميزان علاقتهما، ذلك الذي يهوي بالنهار ويستقيم بالليل، على أنَّه نافع في صون الفضيلة، فاعتمداه. ولكن الدنيا والإنسان والجمال والعشرة والحب أكثر تعقيدًا من ذلك الميزان.

وأتى متخفِّيًا وراء الأحاديث الطبيعيَّة، أوَّل جنديٍّ من جنود العشق، إنَّه الضحك. يبحث هذا الجندي عن نقاط ضعف السدود المبنيَّة التي تحبس خلفها مشاعر تتصاعد. لا يُلقِي الإنسان بالًا لهذا الجندي الخبيث، ويستخفُّ بقدراته ويصرف عنه تركيزه إلى ما يعتبره أكثر خطورة، كنظرة طويلة أو تنهيدة عالية أو كلمة غزل -أو إعجاب- صريحة تدق أجراس الروح بصخب فيتنبَّه منها كيان المرء فيوقفه. في حين تمرُّ المزحة أو الضحكة مرورًا سلسًا غير ملحوظ كمرور الماء في الشِّباك. صار وسيم يستهزئ بها بلطف فترد له الكرَّة، يستصغرها في مزاح علني بطريقته اللبقة، وتكبر هي جدِّيًّا بداخله رغم أنفه.

راح الضحك ينخر أسوارهما حتَّى اعتاداه، ونشأ داخلَ كلٍّ منهما ثاني جندي من جنود العشق، إنَّه الانتظار. صارت أوقات

الفراق تشبه توقُّف الزمن. بدأ الميزان بالاختلال، فلم يعد ليل الفراق ينسيهما نهار اللقاء، بل تحوَّل إلى فرصة يراجعان بها جمال ما يشعران، ويغتنمانه لتبرير ما سيشعران به في الغد. وصار يشعر بالوحدة التي كانت حب حياته ومرتعِ أفكاره، لقد بدأ يرى عيوب وحدته التي كانت أنيسته، فكأنما بدأ يشعر بالوحدة في حضرة الوحدة. وبدأت هي ترى عيوب زوجها وتبالغ بها وتعتبرها في تزايدٍ يوميٍّ وتدَّعي أن لا علاقة لهذا بهذا، فجأة اكتشفت أنَّها تعبت من احتمال ما لم تكن تعتبره احتمالًا قبل ذلك.

ظلَّت الفضيلة بينهما بساترٍ يرقُّ يومًا بعد يوم. بدأ سلام الأيدي يطول ولقاء الأعين يطول. لكن بَقِيَ الكلام راضخًا لبرزخ العقل، والعرف، والأخلاق، والخوف، والمجتمع، إلى أن أتى جنديُّ العشق الثالث الذي يقضُّ العقل ويلوي الرادع ويتجرَّأ على الخوف والمجتمع، إنَّه السفر.

كان سائدًا في مثل تلك الشركات العالميَّة أن تنظِّم اجتماعًا ترفيهيًّا في بلد سياحي من شأنه تحفيز الموظَّفين مع بداية كلِّ عام تقريبًا. وكان سائدًا ألَّا يعتذر عن هذا اللقاء أحد من الموظَّفين من رجال ونساء، متزوِّجين وعازبين، مديرين، وحديثين وقدماء في الشركة. ومن ضمن من ذهب بالطبع لاجتماع ذلك العام، وسيمنا وحسناؤنا.

مرَّت رحلة السفر ذهابًا، ويومَا الاجتماع الأول والثاني بغير حدث يُذكر أو شيء لم يألفاه في مكتب مدينتهما. وكان عشاء اليوم الثاني يضمُّ كلَّ الموظَّفين ويدور فيه بعض الرقص الراقي، وتزداد فيه صداقات الموظَّفين لما يقضون من وقت مرح بعيدًا عن محيط العمل ومشاغله.

شارف العشاء على الانتهاء وراحت تتكتل الطيور التي هي على أشكالها، تمامًا كما يحصل في رحلات المدرسة أو الجامعة، فإنك مهما قاومت نزعة فيك لتكون مع القِلَّة التي تنسجم معهم، إلَّا أنَّه ينتهي بك اليوم لا شعوريًّا مع تلك القِلَّة. كأن بين العقول المتناغمة حبلًا يطول بالنهار ليشعِرَك بوهم الحريَّة وبأنَّك تتناغم مع كلِّ الناس، ولكن ذلك الحبل يشتد ويقصر مع انخفاض النور، ويرغم الأجساد التي تحمل العقول المتناغمة بالتقارب والسير نحو بعضها بعضًا، ما لم يكن ثمَّة رادع اجتماعي لذلك.

تصاغرت المجموعة التي فيها وسيم والحسناء ليصبحوا خمسة أشخاص يزيد عليهما شاب وصبيَّتان. توجَّهوا إلى المنتجع، وما إن وصلوا وكادوا يتفرَّقون كلٌّ إلى غرفته، حتَّى قالت إحدى الصبايا: «ما زالت الساعة الحادية عشرة. حقًّا ستنامون الآن؟». تمتم الجميع واتفقوا أن يجلسوا قليلًا في بهو الفندق في الطابق التاسع وليس الذي في الطابق الأرضي، كي لا

يراهم أحد من الموظَّفين الذين لا ينتمون إلى تلك الشِّلَّة ويعكِّرَ عليهم خلوتهم ويضفي على أحاديثهم نكهة أخرى. في غضون نصف ساعة، وعلى غير المتوقَّع أصابهم النعاس، فقاموا يوصل بعضهم بعضًا إلى غرفهم المتناثرة في طوابق المنتجع.

بتدبير ذكي أو صدفة غريبة، انتهت الرحلة بالوسيم يرافق الحسناء إلى باب غرفتها. بدا كل شيء على ما يرام، إلى أن مدَّت الحسناء يدها توشك أن تسحب الكارت المغناطيسي لتفتح به باب غرفتها حتى قال الشاب بغير تفكير: «لا أعتقد أنني سوف أنام الآن، لمَ لا نتمشَّى قليلًا؟».

فكَّرت قليلًا في عواقب هذا الطرح، وفي تلك اللحظة تحديدًا قبلت أن تخاطر بكل مشاعرها وحياتها وفضيلتها وطفليها وزوجها وقلبها وروحها.

إنَّ في الإنسان حاسَّة أو شيئًا ما، أرفع من كلِّ الحواس، يجعله يدرك بكيانه كاملًا، إدراكًا يفوق إدراك العقل والقلب والجسد، ما عواقب قرار لحظيٍّ يبدو سخيفًا أو يقنع المرء نفسه بسخفه. في تلك اللحظة، تمتدُّ هذه الحاسَّة في الزمن وتحذِّر الإنسان من المضي، وتنبِّهه مُرَّ العواقب وخطورتها. لكن جنون الإنسان ما أروعه، مع كلِّ هذا الإدراك والإنذارات، إلَّا أن هذه الحاسَّة تعجز عن ردعه عندما يكون الخيار فيه وهمًا مقنَّعًا يعيد الأمل بحياة الروح من جديد. تلك الروح التي أقنعتها السنين، على

مرِّ السنين، أن تتخلَّى عن الحياة، عن الشغف، عن الإحساس، عن الأمل، عن الانفعال الحقيقي، عن الرابط بين الجسد والروح والعقل واللسان والأذن ومتعهم أجمعين. يبدو ذلك القرار في لحظته على أنه إيذان بكسر المشاعر الروتينيَّة الرتيبة، تلك التي تسري كماء الريِّ ببطء في قنوات ضيِّقة محدَّدة المسرى في وقت معيَّن من اليوم، لتصل إلى مكان مقصود تسدُّ به عطش الأرض. إن هذا القرار إيذان بتفجُّر الينابيع من حيث لا نحتسب، وبجريان الأنهار العظيمة الجارفة، واهتزاز الكيان والحياة.

كيف لمن شعر بملل الكبر في شبابه أن يقاوم هذه المغامرة التي تتزيَّن بنفحات العيش؟ كيف لمن كانت روحه تناضل لتشعره بوجوده كفرد، ليس كأم أو أب فقط، أو كزوجة وزوج، بل كامرأة جميلة مثيرة ورجل كرجل؟ كيف لنا أن نطمس فرصة لملاقاة مشاعرنا التي اشتقنا إليها؟

نعم، إن الشوق للأموات والأحياء والأماكن والبلدان صعب، ولكنَّ الشوق للمشاعر يفوق كلَّ ذلك صعوبة. إن الشوق الحقيقي ليس شعورًا بحدِّ ذاته، ولكنَّه يصف حالة تجاه شعور آخر. أي إن الحب شعور، ولكننا نشتاق إلى أن نحب، الغيرة شعور ونشتاق إلى أن نغار، إن السعادة شعور ونشتاق إلى أن نسعد. إن شوقنا لتلك المشاعر، هو طلب للحالة التي كنَّا

عليها مع هذا الشخص في ذلك المكان في تلك الحظة. وكانت حسناؤنا قد اشتاقت إلى أن تشعر...

دار كل ما سبق في رأسها في أقل من ثانية، فاختارت قائلة: «وأنا لن أنام، انتظرني هنا خمس دقائق -مشيرةً إلى عتبة بابها- لأنتزع هذا الحذاء المتعب وأكلِّمَ زوجي وأخرج لنتمشى ونرى المدينة في ليلها».

ثبت الرجل مكانه منتظرًا كالطفل الذي ينتظر أوان بدء الفسحة. خرجت له بحذاء شبه رياضي لا يليق مع ما أبقته من ثياب رسميَّة وأحمر شفاه رقيق لزوم عشاء الشركة السابق. على بساطة تلك الأمور، لكنَّها تقع في قلب الرجل وقع الزلزال وتأسره تمامًا. ما أبسط أن تبدو المرأة حُرَّة واثقة مرحة سهلة مرتاحة مع جسدها، وما أسهل أن يعشقها الرجل الذكي لذلك.

تسلَّلا خارجين من باب الفندق وبدأت رحلة مشي في المدينة الغريبة، التي أصبحت في تلك الليلة أقرب من بيت الطفولة لكليهما. لن نَصِفَ الوقت، ولا لمسات النسيم على منابت شعر جلدهما. لن نصف الغناء، ولا الجنون ولا الإحساس المدوِّي الذي ملأ فراغهما. لن نصف الكلام الذي دار. لن نصف شيئًا من كل هذا، لأنَّه ببساطة لا يوصف. سنختصر تلك الساعات على أنَّها ساعات قليلة هبطت بها الجنَّة إلى الأرض لتحتوِيَهما وتهبهما ذلك الزمن المسروق الذي ليس كمثله شيء.

انتهى ذلك الزمن مع بزوغ الشمس، وتصاعدت الجنَّة من جديد تاركةً أرضهما، ووجدا نفسيهما أمام باب الفندق من جديد، كلُّ هذا كان ليَمُرّ مرور الكرام لولا اللَّحظة الأخيرة التي نقشته بكيانهما، اتفقا في تلك اللحظة ألَّا يخبرا أحدًا برحلتهما.

وها هو جندي العشق الرابع يوجِّه ضربته القاضية، فيحوِّل أيَّ علاقة بين رجل وامرأة إلى عشق مجنون، إنَّه السرُّ.

إن السرَّ، أيّ سرٍّ، بين رجل وامرأة، هو إعلان انتصار العشق عليهما. رغم التناقض الذي في الجملة السابقة، لكنَّها لا تحتمل أن تكون خطأ. إن السرَّ يجمع الاثنين ويضعهما موضع الوحدة الواحدة بمواجهة أو بموازاة كلِّ الناس والدنيا، وهذا على سذاجته، إلا أنَّه رومانسيٌّ يوحي بالثقة والبطولة والأمان والِاستئمان وغيرها مما يعقد وثاق الأرواح العاشقة. إن السرَّ إعلان انتصار العشق.

انتهت رحلة الشركة وماتت ذكرياتها إلا من هذه الليلة. تدهورت علاقة الحسناء بزوجها، وتضاعف عشقها للوسيم لما احتاجته من رجل حنون يلتهب شوقًا للمس جلدها، وراحت تشكو له برودة زوجها واشتغاله عن أنوثتها ووجودها كامرأة. حدث هذا منذ قرابة ثلاثة أعوام واتفقت الحسناء وزوجها على الطلاق.

كان سائدًا في تلك الحقبة أن يطلّق الأزواج مع كلِّ مشكلة تعترض زواجهما وعلاقتهما، ما إن تضعف المشاعر بعض الشيء، أو تمرّ العلاقة بتحدٍّ بسيط أو يعجب بأحد الزوجين أحد ما ويشعرهما ببعض الاهتمام، إلا ويطلب أحد الزوجين الانفصال. فلم تعد المرأة مضطرَّة إلى احتمال أيٍّ سوء من الرجل، ولم يعد الرجل بحاجة إلى المرأة. لقد فقد كلٌّ منهما الحاجة إلى الآخر واعتماده عليه، وذاب اختصاصهما. ومع سواد تقديس الحياة الفرديَّة، صار من الغباء الاستمرار في زواج لا يشبه نهاية الأفلام، تلك النهاية التي تُختتم بزواج جميل يسدل عليه الستار، ولكنَّه يخفي بعده حقيقة لم يمثِّلها الممثلون. وأخذ الطلاق بالازدياد، وصار موضة ذلك العصر الخيالي، ودار ما يشبه الجنون من تنظيم حفلات طلاق يجتمع بها الأصدقاء ليباركوا هذه الخطوة الميمونة، وسادت فكرة أن الطلاق وانفصال الأبوين أفضل وأنفع للأطفال من البقاء في أسرة تشعر فيها الأم أو الأب بنقص عن كمال. وكعادة البشر، فإنهم يتأقلمون بسرعة مخيفة، فنشأت الأعمال والمؤسسات التي ترعى هذه المنظومة الاجتماعية الجديدة: أولاد سعداء من أبوين منفصلين.

بما أن الطلاق كان يزداد سوادًا، بطبيعة الحال بدأ الزواج والأسرة يظهران بصورة غير المألوف. في ذلك الحين، والدنيا

على ذلك الحال، طلب الوسيم يد الحسناء المطلَّقة، ويعتبر هذا إبحارًا بعكس التيَّار، الزواج والدنيا يسيران نحو الطلاق، ما هذه الغرابة؟! لم تكن الغرابة في ذلك العالم الخيالي أن يتزوَّج أعزب بمطلَّقة لديها ولدان، ولكنَّها كانت بفكرة الزواج نفسه، لكنَّهما قررَا أن يتزوَّجا. يُقال إنهما اتخذا هذا القرار المعاكس لما هو سائد لبقايا شيء ما في نفسيهما لا نعلمه نحن ولا يفهمه مجتمعهما.

منذ ذلك الحين إلى يوم أمس لم يندما لحظة على ذلك القرار الجريء، وها هي غدًا صباحًا بالتحديد تطلب إذن إجازة الأمومة. هل نسيتم هذا؟ لعلَّنا استطردنا إلى وصف الماضي القريب، ونسينا الحاضر والمستقبل.

خرجت الحسناء من مكتب مسؤولة الموارد البشريَّة، وتوجَّهَت إلى البيت لتنتظرَ وسيمها. في حين كان المجتمع يغالي ويتطرَّف في نبذ فكرة الأسرة، صار زواجهما يقوى يومًا بعد يوم. بعد أسبوع من الغد، وضعت الحسناء طفلها من زوجها وسيم كما توقعت طبيبتها وكما أخبرت هي زميلتها، ولد لهما ذكر سليم أسمياه «عهد».

نشأ عهد في أحضان أمِّه الحنون وأبيه المتحضِّر، حاولَا بكل وسائل الدنيا المطروحة أن يمنحاه أروع طفولة، وبكل المعايير

قد أتمَّا نجاحهما. كان كلٌّ شيء يسير نوعًا ما بسلاسة، وكان حبهما يقوى ويزيد ويتضاعف مع عهد.

في قصص الخيال، يقوى حب الأزواج عندما يأتي الأولاد، وإن كان هذا غالبًا لا يحدث في الواقع. استمتع عهد بطفولة رائعة في البيت وهو يتنقَّل من حضن أمِّه الدافئ إلى جنون أبيه اللطيف، تكاد تخلو سنوات عهد الأولى من مشكلات تذكر، كذلك أمضى أول خمس سنوات من المدرسة وكأنَّها امتداد جميل لطفولة المنزل.

كم كنت أتمنَّى أن أخبركم أن الوضع امتد على هذا الحال، ولكن ما هكذا تقوم الثورات.

بدأ المستقبل بالانحدار وبدأ الخيال يتلاعب بصورة المستقبل، تارةً بالمبالغة وطورًا بالتعميم. قد يرى كلٌّ منَّا المستقبل البعيد بصورة خاصَّة، ولكن علينا ألَّا ننسى أن المستقبل هو امتداد للحاضر وغالبًا ما يكون من نفس نوعه ما لم ننخرط نحن بتغيير الحاضر أو ما لم يطرأ عليه ما يصدُّ مساره بصورة معيَّنة ويعطيه مسارًا مختلفًا. وكان عهد ضحيَّة امتداد الحاضر إلى المستقبل دون ذلك الطارئ. قد يبدو المستقبل الذي ستقرؤه غير بديهي أو مبالغًا فيه بشكل أو بآخر، ولكن هذا ما حدث في القصَّة التي لم تحدث بعد.

في سَنَتِهِ السادسة بدأت تظهر على عهد علامات مغايرة. بدأ شيئًا فشيئًا يتراجع مستواه الدراسي ويشتكي منه معلِّموه. كانت الحسناء الأم ترقب حركاته وسكناته وتتابِعُه بنفسها، مع ذلك فإنَّها لم تُعِر هذا أهميَّة إذ اعتبرته تغيُّرًا طبيعيًّا يصحب التقدُّم في العمر. كانت في قرارة نفسها تدرك أن الأمر ليس كذلك، لكنها أجَّلت البحث فيه، وحاولت أن تمدَّ سنوات الرِّضى دون أن تتطوَّع هي بكسرها.

وكما هو الحال في معظم المشكلات التي لا يعالجها أو على الأقل لا يفهمها المرء من حينها، تزايد تدهور عهد في دراسته في سَنَتِهِ التاسعة. بدأت تظهر عليه علامات العدائيَّة تجاه أصدقائه وكأنَّ في قلبه تراكمًا من الغضب نحوهم. كان يعود إلى البيت ويتعامل مع أمِّه بنقمة لا تشبه طفولته. وما زالت الحسناء -التي بدأت تكبر- أن تؤجل في الاستقصاء إلى أن أرسلت في طلبها الإخصائيَّة النفسيَّة من المدرسة. وبعد اجتماع طويل بينهما، طرح كلٌّ منهما رؤيته عن هذا «العهد» وقرَّرتا أن تدرسَا الموضوع بشكل أدق.

صارت الصبيَّة الإخصائيَّة في المدرسة تتقرَّب من عهد وتنشئ معه صداقة وتتحدث معه في كلِّ فرصة تظهر لها أو تختلقها هي، وحازت على ثقته في وقت قياسي. كان عهد يدَّعي أن المواد صعبة وأن أصدقاءه في صفِّه يزعجونه، ولكنَّه كان

واضحًا أنَّه يخفي حقيقة أخرى داخله، لعلَّه هو نفسه لا يفهمها حق الفهم ليصفها. مع تقرُّبها منه بدأت تكتشف أمرًا عجيبًا. بدأت تربط بين الأشياء والأحداث والخلفيَّات كما يحدث في أفلام التشويق إلى أن لاحظت أمرًا مدهشًا بالفعل، وقد يكون ذلك هو سبب عدائية عهد.

اكتشفَت الإخصائيَّة بعد جهد ودراسة أن عهد هو الصبي الوحيد في فصله الذي ينتمي إلى أسرة بهذا الشكل، ويا له من اكتشاف خطير. لا أحد من أصدقاء عهد لديه أسرة من أبٍ ذكر وأمٍّ أنثى متزوَّجَيْن يعيشان في بيت واحد ويهبانه ما يستطيعان من كلِّ شيء. إنَّه يشعر بالاختلاف عن كُلِّ ما هو سائد حوله، وطبيعي أن تتشكَّل في نفس طفل بعمر عهد مشكلات بسبب اختلافه.

كانت فئة من زملائه في الصف تربيهم أمٌّ من غير أبٍ أو أبٌ من غير أمٍّ، وقد تجمع بين الأبوين صداقة أو عداوة. يزورهم الأب أو يزورونه في نهاية كلِّ أسبوع، ويقدِّم لهم ثمين الهدايا ليعوِّضَهم عن غيابه، وكذلك تفعل الأم في الحالات المعاكسة. كان هذا هو الامتداد الطَّبيعي لزيادة الطلاق في يومنا هذا، فكان كما أسلفنا قد تفشَّى بشكل كبير لأسباب معلومة، ولكننا لا نذكرها بوضوح حتَّى لأنفسنا.

كانت الفئة الأخرى من أصدقاء عهد يعيشون في بيت من أبوين قد تبنَّياهم ويعيشون حياة من الانصهار المبالغ فيه. وكان هذا قد ساد في ذلك الزمن ولم يعد من رادع اجتماعي أو مؤسسة دينيَّة يصارعانه. إن ما سُمِّي بحريَّة الفرد الشخصيَّة وتقليد المجتمعات بعضها بعضًا قد كفلت لكل ما استهوت النفس البشرية تبريرًا. قد يبدو هذا المستقبل غريبًا عن مجتمعنا أو عن قيمنا كما نتصوَّرها الآن، ولكن ألم نكن نستبعد أشياء أخرى في الماضي وها نحن نتقبَّلها الآن بكل رحابة صدر؟ ومن لا يتقبَّلها برحابة صدر، فإنَّه على الأقل يتقبَّلها بضيق صدر مستتر، ولا يجرؤ أن ينتقدها وإلَّا اتُّهِم بالرجعيَّة والانغلاق وغيرها من الصفات الذميمة. على أي حال، هكذا حدث في القصَّة التي لم تحدث بعد.

كانت كلُّ الدنيا في ذلك المستقبل قد اختلفت تمامًا، من برامج التلفاز، والإنترنت، ولغة المجتمع، والكتب وحتَّى قصص الأطفال. كانت كلُّها تحاكي منظومة غير التي نشأ عليها عهد. ما هي الأسرة، وما هو الزواج، وما هو حب المرأة والرجل، وما هي الطفولة المحاطة بالرعاية؟ كلُّ هذا أصبح غير مألوف في ذلك الزمن. كلُّ هذا كان يُشعر عهد بأنَّه غريب منبوذ في مجتمع لا يشبهه. وتسبب هذا بتلك المشكلات النفسيَّة العميقة في العهد.

بعد هذا الاكتشاف دعت الإخصائيَّة الحسناءَ وزوجها وقالت ناصحةً، بعد مقدِّمة طويلة: «إن كنتما تحبَّان ولدَكما عهد عليكما أن تنفصلَا. إن العيش في أسرة بهذا الشكل القديم والرجعيِّ لا يتماشى مع ما هو سائد اليوم، وهو ليس أمرًا صحيًّا ولا يضمن مستقبلًا سليمًا لابنكما. أرجوكما فكِّرَا في الأمر لمصلحة عهد».

وقعت هذه الكلمات على الحبيبين الزوجين موقع البركان والزلزال، حيث امتلآ بالغضب واهتز قعر كيانهما. دارت بهما دنيا الأفكار وتصارعَا كلٌّ بداخله: هل أتخلَّى عن حبيب العمر لأجل حبيب العمر؟ هذا ليس عدلًا، كيف لهذا الجنون أن ينتشر ويؤثِّرَ فينا هكذا؟ كانا يصفانه بالجنون بغير موضوعيَّة لما كان فيهما من ذلك الشعور الذي قرَّرا أن يتزوجَا من أجله. كانا قد ورِثَا نقمة دفينة على المجتمع، لم تتلاشَ مع مرور الزمن. كانا مقتنعين أن كلَّ ما ساد في ذلك الزمان هو انحطاط فكري أو أخلاقي أو تجريد للإنسان من إنسانيَّته. حتَّى إنَّهما -مع كلِّ حبِّهما وما اكتشفاه عن طليق الحسناء- كانا يشعران بنوعٍ من الذنب بسبب ما اعتبراه خيانة وإن لم تكن جسديَّة.

تضاعفت نقمتهما على سائد المجتمع بعد الذي اقترحته الإخصائيَّة وكانا على شفير الإذعان لذلك السائد والتأقلم معه والاستسلام له.

إن كلَّ الدلالات في ذلك المستقبل كانت تؤكِّد أن الإخصائيَّة على حق، لكنَّ العشق لا يبالي بالحق. إن للعشق جنودًا بها ينتصر على الفرد كما أسلفنا، ولكن العشق نفسه هو جنديٌّ في معركة أخرى. إن العشق هو الجندي الخفيُّ الذي يغيِّر معالم الدنيا ويقلبها رأسًا على عقب. وجاء القرار ممثِّلًا كُلَّ اختلاجات روح وسيم وحسنائه من عشق ونقمة وغضب ولا موضوعيَّة وعشوائيَّة وأمل وغيرها مما لا يفهمه العقل. قرَّرَا أن يغيِّرَا الدنيا ويقلِبَا الغريب سائدًا من جديد. لن ينفصل الحبيبان الزوجان.

أخرَجَا عهد من تلك المدرسة وقامَا بتدريسه في البيت وزادَا العطاء وطفِقَا يشرحان له جمال الدنيا السابقة، أي أيامنا هذه أو ما بَقِيَ منها. قرَّرَا أن يحوِّلاها إلى هدف مرجوٍّ للهروب من تلك الدنيا التي أبغضاهَا.

نشأ عهد نشأةً أخرى وشَبَّ وفي نفسه حلم أن يقلب التاريخ، وأن ينشر نموذجًا آخر للدنيا. وتسارعت الأحداث وتعاظم الحلم والأمل المجنونان في ذلك الشاب.

كان عهد قد أعطى من الجمال والبيان الأمر اليسير ولذلك تبعه بعض الناس. لقد اكتشف عهد أن في جوف أناس ذلك الزمان بقعة تشبهه. بقعة فيها نقمة ممزوجة بعجز، فأخذ يدغدغها برِقَّة في من حوله فَعَلَا نَجْمُه وانتشرت دعوته بخجل. ونشأت بعض حركات تطالب بعودة الأسرة واختصاص الأب

وعودة المرأة لدور الأم وإعادة إرساء روادع الخلق، والحدِّ من تقديس الحريَّة الفرديَّة.

ككل غريب، حاربت الدنيا بسائدها عهد وأفكاره الغريبة آنذاك. ولكن تلك البقعة في قلوب المؤمنين بدعواه، صارت قضيَّتهم وأصبحت نورهم، فقد تميَّزوا بها وعرَّفتهم ووهبتهم هويَّة بعد أن كانوا أرقامًا تابعة لأرقام تمشي وراء أفكار لم تفكِّر في عواقبها مليًّا.

ومع كلِّ المدنيَّة والسلميَّة التي قاد بها عهد تلك الثورة الغريبة والمتجددة إلَّا أن السائد كرَّسَ ما لديه من قوَّة ومن إعلام وسُلطة ليحارب ثورة عهد. أخذ السائد ينفث فيها سُمَّه بحججه الكثيرة التي تحاكي الفرد ومتاعه الآني، وتطمس ما اعتقده عهد وأتباعه خيرًا للمجتمع ككلٍّ، الذي يسدل على الفرد بطبيعة الحال.

دام السجال بين ذلك العهد وعهد ونشأ التطرُّف إلى أقصى الفكرتين على أمل أن يرسُوَ على وسط ما. ولا تزال ثورة عهد قائمة في ذلك الزمن المستقبلي إلى أن حضرني أنا الموت ولم أدرِ كيف انتهت تلك الثورة.

رفاهية الشك

تبدأ أحداث القصَّة التالية من حيث انتهت أحداث قصَّة «أرني الله» للكاتب والفيلسوف المصري توفيق الحكيم، حيث استهلَّ بها كتابه وسمَّاه على اسمها. إن معظم روايات الحكيم القصيرة أو الطويلة لا تنتهي حيث تنتهي. لكنها تأخذك من حيث انتهت في عالم تنسجه أنت كقارئ من خيالك وميولك وخلفيَّتك وتمنِّيَاتك. قد لا تنتهي هذه الرحلة قبل أيَّام أو أسابيع من قراءة النهاية المفتوحة التي دوَّنها الحكيم، و«أرني الله» ليست استثناء في هذا، فهي كذلك لا تنتهي حيث تنتهي.

لنسمح لأنفسنا أن نفتح الستار الذي أسدله الحكيم على خاتمة تلك القصَّة قبل أوانه ونسرح بخيالنا ونرسم اكتمال القصة ونستطرد بأحداثها وصولًا إلى زمننا هذا. لا بأس أن نداعب ثوابت العظماء برِقَّة. جدير بالذكر أن قصَّة الحكيم رواية فلسفيَّة خياليَّة تدور حول المحظور من الأديان ولكنَّها تتجنَّب الوقوع فيه، هذا ما سنحاول أن نفعله في قصَّتنا.

لمن لم يقرأ «أرني الله» بعد، هي باقتضاب شديد مبسَّط، تحكي عن غلام صغير ذكي الفؤاد ذلق اللسان طلب من أبيه الطيِّب ببراءة الأطفال وغبائهم أن يُرِيَه الله، فقد كان كثيرًا ما يحادثه عنه، فانخرط الأب بمحاولة رؤية الله. حمل الأب ذلك المطلب الغريب، وراح يتنقَّل به بين رجال الأديان السماويَّة وباءت محاولته بالفشل، إلى أن اهتدى إلى ناسك أرشده الطريق. كانت الطريق أن يسأل الله أن يهَبَه نصف ذرَّة من محبَّته وتلك كفيلة أن تجعل الرجل يدرك رؤية الله ولكن ليس بحواسِّ البشر. فتمَّ ذلك، وهام الأب الطيِّب على وجهه وشخَصَ ببصره إلى السماء وتعطَّل ذهنه أو توقَّف بمعايير البشر وكأنَّه انتقل إلى دنيا أخرى وبَقِيَ جسده في دنيانا. بعد بحث طويل عن الأب، وجده أهله وذلك الناسك على حالة الهيام تلك وتنتهي قصَّة الحكيم بأن قال الناسك: «إن نصف ذرَّة من نور الله تكفي لتحطيم تركيبنا الآدميِّ وإتلاف جهازنا العقلي». هكذا تنتهي قصَّة الحكيم التي كانت في سالف العصر والأوان لتبدأ قصَّتنا التي هي في يومنا هذا...

رفاهية الشك...

وقف الصبي ينظر بحزن إلى أبيه المتصلِّب كاللوح، هائمًا شاخص البصر، متوجِّهًا نحو السماء، لا يحرِّك ساكنًا، فاقدًا للإحساس والوعي بكلِّ ما يدور حوله. وراح الصبي يبكي بين ذراعَيْ أمِّه التي تعجز عن تفسير ما ترى. كان زوجها منذ أيَّام طبيعيًّا سليمًا، ولم تبدُ عليه أيُّ بادرة تنبئ بمرض جسدي أو نفسي أو عقلي.

نظر الصبي إلى أمِّه وقال بصوت يخنقه البكاء: «أنا السبب في هذا يا أمي، أنا من طلب منه أن يرى الله».

ردَّت الأم بصلابة وكان فيها من الحكمة والموضوعيَّة والعمليَّة ما قد يفتقده رجال ونساء عصرنا: «لا تقلق يا بني، سوف نعالجه ونعيده إلينا بإذن الله».

طلبَت الأم الإسعاف وانتقلت بزوجها، كقطعة أثاثٍ صمَّاء، إلى أحدث مستشفيات البلد. وفي اليوم الثاني بدأ الأطبَّاء تحاليلهم وفحوصاتهم الجسديَّة والعقليَّة والنفسيَّة. واستقرَّ تشخيص معظم الأطباء على أنها حالة عصبيَّة أتت إثر صدمة شديدة تلقَّاها الرجل بشكل مفاجئ، وتفاعلت معها عواطفه كاملة لدرجة أن عقله قد عجز عن احتوائها، فتوقَّف.

طمأن الأطباءُ الأمَّ بأن هناك بعض الطرائق العلاجيَّة لمثل هذه الحالة، تقوم على مساعدة العقل على طيٍّ هذه البرهة القصيرة من الزمن ودفنها عميقًا في النفس، من ثَمَّ يستطيع المريض أن يستكمل حياته. كان هذا تشخيص الطب الحديث لحالات مثل فقدان غالٍ بشكل مفاجئ، أو التعرُّض لخوف شديد، أو رؤية قسوة شديدة جدًّا لم يكن للمريض عهد بها من قبل. أما حالة رؤية نور الله هذه، فقد سمعها الأطباء كأن لم يسمعوها، وراحوا يتعاملون مع الحالة بمعزل عمَّا يكون قد تسبَّب بها، إذ إن عجرفة العلم تتغاضى عن كلِّ بسيط تعجز أن تفسِّره.

بدأ العلاج العملي العلميُّ، وما هي إلَّا أيَّام حتى عاد تفاعل العينين وحركتهما، فبعد أن كانتا شاخصتين بلا نور، بدأت عينا الأبِ تتعافيان وتجولان في غرفة المستشفى. راح يحدِّق إلى أعين ابنه وزوجته، وأدركا أنه بدأ يلاحظ وجهيهما ووجودهما، ودارت الحملة الأولى من العناق والبكاء والأمل بالشفاء ولو بعد حين. تلت هذه أيَّام أُخَر، استعاد بها الرجل القدرة على السير البطيء وبدأ يسمع ويتفاعل ببطء شديد ويومئ بالموافقة أو الرفض، لكنَّه ظلَّ عاجزًا عن الكلام. إثر هذا التحسُّن السريع، وافق الطبيب المعالج أن ينتقل الأب إلى البيت لما شهده من اهتمام بالغ، وذكاء وحكمة خارقين في زوجته. وأوصاها أن تحاول جلب زوجها إلى الواقع من جديد وإقحامه في الحياة

ليتسنَّى للعقل أن يطمر هذه الفجوة التي تسبَّبت بها الصدمة، على حدٍّ تعبيره وفهمه.

تابعت الزوجة علاج زوجها بعد أن فهمت تمام الفهم ما قد يساعده على الشفاء. أدركت أن ذلك النور قد تسبَّب بثقب عميق جدًّا في كيان زوجها فأبعده عن الواقع. ولكي يتخطَّاه عليها أن تبنِيَ له جسرًا صلبًا من سخافات الحياة الكاذبة ليعبر فوق نور تلك الحقيقة التي تعرَّض لها. فلم تعد تفارقه على الإطلاق، مع أنَّه ما زال يعجز عن النطق ولا يبدي رغبة به أصلًا إلَّا أنَّها وقفت عازلًا بينه وبين ما قد يدور في رأسه. كانت تخاف إن فارقته أو حتَّى إن صمتت أن يشِعَّ ذلك النور. صارت تتعمَّد أن تخبره عن أي شيء نسمِّيه الحياة. راحت تحكي له عن مشكلات الجيران، وخلافات العائلة، وطلاق فلان، وخيانة فلانة، عن رسوب ابن فلان، عن السياسة، عن الأفلام، عن الشعر، عن الكتب، راحت تجترُّ كُلَّ معلومة تمتلكها وترميها في رأس زوجها الصامت كمن يلقي كُلَّ ما لديه من ماء على نار تهدأ، وهو يخشى أن تستعِرَ من جديد. كانت في بعض الأحيان تدفع بابنها لِيُلهِي زوجها عن أيِّ ساعة صمت، وكان الولد يحسن ذلك كأُمِّه.

مرَّت شهور على هذه الحال، وطاقة الزوجة الحبيبة لم تنقص. تعافى الرجل إلا من النطق. صار يتفاعل مع الدنيا ولكن دون صوت. يبدو وكأنَّه قد ترفَّق بجهد زوجته وعنائها

وحبِّها له الذي استمدَّت منه كلَّ هذه الطاقة، فخجل من ألا يبدِيَ تحسُّنًا حتَّى تحسَّن بالفعل. صار يلاعب ولده، ويساعدها بالطبخ وترتيب المنزل ويشاهد الأفلام، وما إلى هنالك من عوارض الحياة الطبيعيَّة.

في فجر ليلة شتاء باردة، تسحَّب الأب من سريره ببطء دون أن تشعر زوجته ومشى نحو غرفة ابنه بهدوء. دخل غرفة الولد وأيقظه من نومه برِقَّة، فقام الولد وسأل أباه عما يريد في هذا الوقت. أجاب الرجل متبسِّمًا مطمئنًّا: «أريد أن أخبرك بسرٍّ قبل أن تستيقظ أمُّك وتصدِّعَنا بكلامها».

دهش الولد لما سمع صوت أبيه من جديد، فأردف الأب: «نعم يا بني، أنا فقط لم أرَ حاجة إلى الكلام منذ ذلك اليوم، ولكنِّي أرى تلك الحاجة الآن، ألا تريد أن تعلم السرَّ؟».

ما إن سمع الولدِ كلمة سرّ مجدَّدًا حتى أفاق تمامًا، إن كلمة «سرّ» هي كلمة السرِّ التي بها يتَّقد الذهن ويستثار الفضول.

استقام الولد في جلسته وقال: «أخبرني يا أبي، ما هو السِّر؟».

اقترب الأب الحكيم من ابنه وقال بصوت منخفض: «أما زلت تريد أن ترى الله؟ لقد رأيت نوره ووقرت في قلبي الحقيقة

المطلقة التامة والصواب الأكيد في تلك اللحظة، وأستطيع أن أنقل إليك بعضًا ممَّا رأيت من النور والحقيقة».

تاه الولد في عينَيْ أبيه وقال: «وكيف تنقله إليَّ؟».

- بالكلام، سأحاول جهدي أن أصف لك بدِقَّة تلك اللحظة بما حملت إليَّ، إن للكلام قدرة على أن يحملَ النور من قلب إلى قلب، إن لديه قدرة أن يعبر برزخ العقل والروح ويفرِّغ حمولته من نور حيث يستقرُّ. بالطبع لن تشعر تمامًا كما شعرت أنا، ولكِنَّك بلا شك ستمتلك الحقيقة ونورها في جوفك، ذلك إن كنت ما زلت تريد أن ترى الله.

صمت الأب لثانية، وقاطع صمتَه صوتُ الغلام بفارغ الصبر: «وماذا تنتظر، تفوَّه بكلِّ الحقيقة، أنقِل إليَّ بعضًا من ذلك النور، صِف لي ما ألهمت وما شعرت، أريد أن أراه كما رأيته أنت، تكلَّم يا أبي».

- قبل أن أتكلَّمَ يا بني، عليك أن تدرك تداعيات رؤية نور الله والحقيقة. إن انتقال هذا النور إلى صدرك شعور يملأ الدنيا معنى مختلفًا، إنَّه بلا شك أسمى حالة لوجود الإنسان. ولكن في انتقال هذا النور مسؤوليَّة وعواقب قد تثقل كاهليك في دنيا اليوم التي ابتدعناها نحن البشر بتسرُّع ورعونة شاب جهول. عليك أن تدرك هذه العواقب

قبل أن تقرِّر. إن هذا النور يا بُنيَّ إذا حَلَّ في جوفك وهبك الحقيقة. تلك الحقيقة التي اتخذ الناس من حُجَّة البحث عنها ملجأ وتبريرًا لخطاياهم، تلك الحقيقة التي يدَّعون أنها وجهة نظر، وأنَّها نسبيَّة ليست مطلقة، وأنَّها تحتكم بحكم الآراء التي تتغيَّر بين الأزمنة والأمكنة والمعطيات. ستصبح تلك الحقيقة المتعدِّدة لدى الناس حقيقة واحدة مطلقة لديك وستخسر أنت بذلك رفاهيَّة الشك. إن للشكِّ رفاهيَّةً وفَيْئًا يستظلُّ به البشر من نور اليقين ليبرِّروا ضعفهم، وقد يتبرَّر بالفعل، أتريد أن تخسرَ هذا؟

وأكمل الأب كالمحادث لنفسه: «أحقًّا تريد أن ترى الله ونوره؟ إن هذا النور يا حبيبي إذا استقرَّ بداخلك ألهمك الصواب ووهبك معرفة الخير وسُبُلَه من قيم ومفاهيم وسلوكيَّات تتعاطى بها مع الله في داخلك ومع البشر من حولك والأرض التي تمشي بها بكلِّ ما تحوي من كائنات. إنَّه لا شك يهَبُك معرفة الخير، ولكن شتَّان ما بين معرفة الخير وتطبيق ذلك الخير. وبين هذه المعرفة وتطبيقها، ينشأ الصراع الدمويُّ بين نور داخلك وظلمة خارجك، وتقبع أنت في ذلك الصراع كالسجين قبل كلِّ قرار تأخذه. أتفهم يا بني ماذا أقول لك؟».

رأى الأب أنَّه قد بالغ في تعقيد الأمر على ابنه، فأردف محاولًا أن يُبسِّط كلامه ويستعيد تركيز ابنه: «إن نور الله

بداخلك ينطفئ مع كلِّ خطيئة تقوم بها، ولانطفائه ألم يفوق عدم وجوده أصلًا. في أول مرَّة تكذب، ستشعر بهذا النور يخفت ويترك مكانه ظلمة لا يذهب ألمها، في حين أن الدنيا من حولك لا تستشعر هذا الألم».

فقال الولد ببراءة وغباء الأطفال: «لن أكذب أبدًا، أرني الله يا أبي».

- ولِمَ أُرِيكَ هذا؟ لن تفلح إن لم تكذب، دعك من الكذب كان هذا مثالًا فقط. في كلِّ مرَّة تغضب سينطفئ بعض من هذا النور تاركًا وراءه ألم العتمة. في كلِّ موقف عليك أن تتصرَّف فيه بأنانيَّة، سيحاسبك ذلك النور ويهجر بعض منه جوفك، ويزيد احتقارك لنفسك كُلَّما خالفت ذلك النور. سيتصارع بداخلك هذا النور مع كُلِّ ما من شأنه أن يُسهِّل عليك حياتك لتتماشى مع مجتمعك ومحيطك ودنيا اليوم وستعيش هذا الصراع قبل أيِّ قرار، أنا لا أتكلَّم عن القرارات الكبيرة والمصيريَّة فحسب، بل أيِّ قرار. ماذا تأكل، ماذا تشرب، من تُصادق، بأيِّ اتجاه تنظر، وهكذا... ليس هذا فحسب، إن هذا النور يجعلك تعاني ألم كلِّ من تألم مهما قرب أو بعد، فلن تطيق الظلم على المظلومين، ولن تطيق الفقر على الفقراء، ولن تحتمل فساد القيم واختلال موازين الدنيا، وإن لم

تمسَسْك أنت، في حين أن غيرك ممن لم يرَ ما رأيت يحيا دون هذا العناء والصراع. أستطيع أن أُرِيَك الله يا بُنيَّ، ولكن هل حقًّا تريد هذا؟

وأتبع الأب: «يا بُنيَّ، مع هذا كُلِّه، أنا لا أبالغ إن قلت إن استقرار الله فيك لا يقابله ولا يوازيه أيٌّ من هذا العناء والصراع. إن السلام والرفعة والحب والمتعة والمعرفة والجمال والتسامح والأمل وغيرها من سامي المشاعر والحالات التي يأتي بها ذلك النور يفوق أيَّ صراع أو أيَّ سجن أو أيَّ فجوة قد تشعر بها». وأتبع الأب: «ولكن أتدري ما هو الشيء الوحيد الذي لا يطاق بالفعل؟».

- ماذا؟

- إن نور الله إذا حلَّ بك فلن تطيق نفسك أن تبقِيَه لها فقط. سيدفعك هذا النور إلى أن تحاول أن تضيء به الأرض وتنقله إلى كلِّ القلوب من حولك وترشد به التائهين وتريح به من أتعبته الحياة وتنصر به من هزمته الدنيا. ستصبح ككريم يحمل كنزًا ولا يطيق ألا يشرك به غريبًا أو قريبًا، أو كمن علم بطريق النجاة ولا يطيق أن يبقِيَها لنفسه.

هنا يبدأ الجحيم الذي أذاب حياة الأنبياء والقدِّيسين. لقد حملوا وهج هذا النور وساحوا به في أرضهم ليضيئوها ولكن قابلهم الناس، إلَّا القليل، بين جاهلٍ، وظالم، وعنيد، ومستكبر، ومستخفٍّ، ومستثقل، ومتأقلم، ومستسلم، وتابع بالصدِّ. ورغم ما أعطاهم الله من قدرة تحمُّل تفوق قدرتنا نحن، راح وَهَجُ هذا النور السجين يأكل كيانهم بدلًا من أن ينتشر في الدنيا، وأخشى عليك هذا يا بُنيَّ. إن سخافة التفاصيل التي يغرق بها أغلبنا لديها قدرة غريبة على أن تكتم شعاع النور».

هَمَّ الأب ليستأنف وصف ذلك النور وذلك الشعور وتلك الحقيقة فقال: «يا بني...».

رفع الولد يده إلى شفتَيِ الأب وأطبقهما بإصبعيه الصغيرتين وقال ببراءة الأطفال وغبائهم: «يا أبت، لا ترني الله».

حبٌّ ووحدتان!

إن الحب، بالمطلق، يضفي على الحياة أنسًا لا يضفيه شعور آخر. لا أتكلَّم عن حب المرأة والرجل فحسب، بل عن أيِّ حب. حب ذات، حب فكرة، حب أيديولوجيَّة، حب فن، أو أيِّ حب أو ولع بشيء ما، يملأ فراغ الدنيا ويهبها لونًا يطغى على رمادها الممل. ولكن حتَّى هذه الحقيقة ليست ثابتة. فيما يلي قصَّة تربط الحب بالوحدة. قصَّة شاب وقع في هيام فكرة، ولكن لتبسيط القصَّة، سنرويها على أنَّها قصَّة حب عاديَّة بين رجل وامرأة، وأغلب الظنِّ أنَّك قد مررت بمثلها، فهي متكرِّرة في حياة الكثير من الناس، ليس ذلك فحسب، بل إنِّها قد تتكرَّر أكثر من مرَّة في حياة أحدنا.

حبٌّ ووحدتان!

خريف العام ما قبل الماضي، قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، توقَّفت سيَّارة زرقاء أسفل إحدى عمارات العاصمة، وفي أحد أكثر شوارعها اكتظاظًا بالناس والسيارات والطلَّاب وراحت تطلق زماميرها. بعد قليل، بدا وكأنَّ من كان بداخلها قد فقد الأمل من أن يطلَّ عليهم أو يخرج من مدخل العمارة من ينتظرونه أن يطل أو يخرج. دقيقتان وترجَّلت من السيارة صبيَّتان، إحداهما جميلة وركضتا بسرعة باتجاه العمارة، في حين انشغل الشاب السائق بتحسين وضعية ركن السيارة وإزاحتها عن وسط الشارع، وترجَّلَ منها وأقفلَها وقفز لاحقًا بالصبيَّتين.

وصل الشاب والصبيتان معًا إلى باب شقَّةٍ في الطابق السادس. مدَّت الجميلة من الصبيَّتين يدها إلى مقبض الباب الخارجي وهي توقن أن الباب مفتوح، وقالت بحنق: «باب بيته تمامًا كحياته، مشرعًا لكل من أرادت الدخول».

دخل الأصدقاء الثلاثة إلى غرفة جلوس تملؤها فوضى يضيع فيها البصر ويحار بها من يود الجلوس. فلا توجد بها أريكة بلا كتاب مفتوح مقلوب على بطنه لئلا تضيع تلك الصفحة التي وصل إليها القارئ، وإن خلت من الكتاب فإنها لن تخلُوَ من قميصٍ أو بنطال مقلوب داخله لخارجه ينُمُّ عن الطريقة

المستهترة أو المستعجلة التي قد خُلع وأُلقِي بها. وإن خلت من ذا وذاك، فإنَّها لن تخلُوَ من حذاء رياضة كرة السلَّة أسفل منها. بسرعة لَمْلَمَت الفتاة العاديَّة الجمال بعض الفوضى ليجلس الجميع، وكانت تلك الفتاة مبالغة الاهتمام بالأصدقاء بعض الشيء لسبب ما نجهله.

«أَمهِلوني خمس دقائق»، نادَى بها من داخل الشقة صوت شاب فيه نبرة من الهزل يوحي بشعورٍ مصطنعٍ بالذنب. الذنب لعادة سئم الأصدقاء أن ينتقدوه عليها، وهي أنه لا يبالي بالوقت ولا بالمواعيد. حتَّى إن أصدقاءه قد حفظوا ردَّه لنقدهم على تلك العادة، حيث كان يردِّد في كلِّ مرَّة يلومه عليها صديق جديد قول عادل إمام في مسرحيَّة شاهِد ما شافش حاجة: «إحساسي بالوقت معدوم، ما بَشِلش ساعة، مشكلات العصر بتاعتكو دي ما بتهمِّنيش، أنا واخد المسألة ببساطة يا بيه». وكان أصدقاؤه القدامى يقولونها نيابة عنه في كثير من الأحيان.

خرج الشاب من حمَّام غرفته، حيث كان يحادثهم من تحت ماء الدش، يبدو أنه ما إن سمع صوت بوق السيارة حتى تسحَّب من سريره ليستحم، ويبدأ بالتجهُّز للخروج. بدأ بارتداء ملابسه بغير عجلة ودار حديث بين الأصدقاء والشاب عبر الغرف. صاح الشاب الذي كان يصحب الصبيَّتين من غرفة الجلوس: «هيَّا يا ياسر، لقد وعدنا الشلَّة أن نلتقِيَ الساعة السادسة، لقد تأخَّرنا».

ردَّ ياسر وهو يتهاوى على رجل واحدة محاولًا إدخال الثانية في بنطاله قائلًا: «لدينا وقت، من سيكون هناك؟».

أجابه الأصدقاء بما يقارب السبعة أسماء لم يُلقِ بالًا إلى أيٍّ منها إلَّا من جملة تقول: «وقد تصطحب ندى صديقةً لها».

رنَّت في ذهنه هذه الجملة كما ترنُّ الفرصة في ذهن رجل أعمال ناجح امتهن اغتنام الفرص العابرة. تابَعَ ياسر الأسئلة السخيفة ليشتِّت الأصدقاء عن طول انتظارهم: «هل سنأكل قبل أن نلتقِيَ بهذه الشلَّة؟ أنا جوعان، ومن تكون صديقة ندى؟ جميلة؟».

ردَّت إحدى الفتيات: «هذا كلُّ ما يهمُّك؟ نعم، لا بأس بها، أسرِع».

انتهى ياسر من لبسه وخرج عليهم كعادته بشعر منكوش غير مسرَّح، تفوح من جسده رائحة أخَّاذة، يرتدي قميصًا واسعًا أبيض اللون، حافي القدمَين يحمل جوارب بيد وحذاءً رائعًا باليد الأخرى ويسير على أطراف أصابعه كي لا تتسخ قدماه من غبار البلاط.

كان كلُّ ما في ياسر ينمُّ عن الحريَّة والراحة وشيء لا يفهمه الرجال. جلس بين الصبيَّتين وأخذ ينتعل حذاءه الرائع في

لحظة تاهت بها أعين الصبيَّتين، وكأن رائحة روحه قد أسرت نَفَسَيْهما في جوفَيْهما، وابتسم الشاب الصديق.

دخل الأصدقاء إلى المقهى الذي تجتمع به هذه الشلَّة كلَّ يوم تقريبًا. كان ياسر لا يلازمهم معظم الوقت، بل يمرُّ بهم من حين لآخر لكي لا ينساهم ولا ينسوه. كانت لديه خصلة تتراوح بين النعمة حينًا والنقمة أحيانًا وهي أنَّه لا يؤمن بأن الحياة مراحل، تنتهي واحدة لتبدأ الأخرى. كان يرفض أن يرى الحياة متجزئة متقطِّعة، بل هي تسلسل واحد ممتد منذ بداية وعي المرء إلى منتهاه. وكان يقول: «أنا صنيع كلِّ حياتي، فأنا مَدين لكل حياتي». وبهذا كانت حياته عبارة عن تراكمات من مختلف ما يعتبره الناس مراحل انتهت. ففي أسبوعه يلقى ياسر وينسجم ويتناغم مع أناس يستحيل أن ينسجم معهم نفس الإنسان لشدَّة اختلافهم. ولو تقصَّد الفاحصون أن يراقبوه لما توانوا عن وصفه إما بالمنافق وإما المجنون وإما الممثِّل البارع وإما فاقد للهويَّة. فلم يكن غريبًا أن يلقى في نفس الأسبوع أصدقاء الطفولة، والمدرسة، والجامعة، والوظيفة الأولى والثانية، وأصدقاء المسجد وأصدقاء فترة الإلحاد التي مَرَّ بها وعباقرة العصر ورفاق الأزِقَّة والشوارع الذين يبذلون لأجله الكثير ويعتبرونه أعَزَّ الأصدقاء.

كان كلٌّ هذا التناقض يزيد من غنى الجلسة مع ياسر ويضاعف متعتها. فقد كان مملوءًا بالحياة على أشكالها، ففي سنٍّ صغيرة استطاع أن يراها من زواياها المختلفة. ولذلك كان يشعُّ بالطاقة والحيويَّة حيث يحُلُّ ويدخل القلوب دون استئذان، وكان هو يقدِّر الناس من حوله ويستمتع بثقتهم به وشغفهم لِلُقياه وانشغالهم بحكاياته.

ما إن جلسوا بين الأصدقاء حتى تحوَّل ياسر كعادته محور الجلسة، ودار الحديث إمَّا معه وإما عنه كأنَّه مركز حجر الرحى، وكان هو يتفاعل بكل كيانه مع كلِّ الموجودين ومع كلِّ كلامهم. وفجأة قال مقاطعًا الجميع: «ندى، أين صديقتك الجميلة التي أخبَروني أنها ستكون معك؟ ما اسمها؟ هل ستأتي؟».

ابتسمت ندى وقالت: «مجنون أنت! قد تلحق بنا، واسمها رنين».

أكمَل ياسر مداعبة الموجودين بكلامه وكأن سؤاله عن رنين لم يحدث إلَّا في خياله. وسط ذلك، أتت ياسر رسالة قصيرة من صديقة له، كان بينهما حبٌّ قد انتهى بسبب رغبتها بالزواج فقرَّرا أن يصبِحَا صديقين: «أين أنت؟ لا أشعر أنِّي بخير وأحتاجك معي الآن».

أمسك ياسر هاتفه وأرسل: «أنا في مقهى الدنيا مع الأصدقاء، تعالي وخذيني». وأقفل هاتفه وتابع حديثه كأن شيئًا لم يكن.

بعد قرابة ربع ساعة، وما إن هَمَّ ياسر بالوقوف لملاقاة صديقته في الخارج، وإذ به يلمح امرأة أخَّاذة الجمال تدخل الدنيا وتبتسم في وجه ندى. أنارَ بياضُ أسنانها الطبيعي الدُّنيَيَيْن، دنيا المقهى ودنيا ياسر. ضاع بصره وعقله بين ثنايا أطراف أجفانها الباسمة. وعلى عكس المتوقَّع، قام ياسر من فوره ومشى خطوتين باتِّجاه من قرر هو أن يعتبر أنَّها «رنين»، صديقة ندى فقال مجازفًا: «رنين لماذا تأخرت؟ آسف، عليَّ أن أرحل الآن، أحد ما بانتظاري في الخارج».

ومشى بها إلى الشلَّة وقال مخاطبًا الجالسين: «هذه رنين، أخبروها عنِّي، كم أنا خفيف الظلِّ، ولطيف، وذكي، وحسَّاس، إلى أن تلقاني في المرَّة الثانية».

وأردف مسرعًا قبل أن تذهب لحظة السكوت التي تلي العجب والدهشة: «سلام يا أصدقاء»، وركض خارج المقهى مسرعًا.

وقفت تلك المرأة في ذهول، ونظر الجالسون إلى ندى سائلين: «هل هذه فعلًا رنين؟ كيف يعرفها ياسر من قبل؟».

ابتسمت ندى وكسرت تلك اللحظة المجنونة وقالت: «نعم هي رنين»، وقالت مخاطبة رنين: «اجلسي يا صديقتي. هذا

ياسر صديقنا المجنون لعلَّه رآك تبتسمين لي، فجازَفَ ونجح، وغالبًا ما ينجح في مثل هذه الأشياء».

جلست رنين بعد أن سلَّمت وتعرَّفت إلى الشلَّة وفي داخلها بعض الامتعاض من نرجسيَّة ذلك «الياسر»، ولكنَّ شيئًا آخر بداخلها همس بصمت: «لكنَّ حذاءه رائع...».

في المسافة القصيرة التي تفصل بين مقهى الدنيا وسيَّارة صديقته، شعر ياسر بسعادةٍ اعتادَها، رغم إدراكه سخفها. سعادة تصحب الأشياء أو المواقف البسيطة التي ينتهك بها حرمات مألوف الناس. ذلك المألوف الذي يتحصَّن به معظمنا نحن العاديِّين مما يفاجئنا ونتجنَّبه قدر المستطاع مخافة النبذ الاجتماعي وسخط الناس والمجتمع والعرف. كانت هذه الخدع التي يخدش بها ياسر المتوقّع قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من شخصيَّته، فهو كثيرًا ما يكلِّم الغرباء ويصرِّح بآراء غريبة على الملأ ويرتدي ما لا يليق (إلَّا من حذاء رائع) وغيرها من بسيط الغريب.

قال في نفسه وهو يفتح باب السيَّارة: «*إن كانت هذه رنين بالفعل، فقد وهبتها ذكرى لن تنساها على الأقل حتَّى نلتقي، وإن لم تكن رنين، فقد وهبت تلك المرأة صاحبة الابتسامة الساحرة والوجه السمح قصَّة تتحدَّث بها لسنوات قادمة*». اِبتسم لتلك الفكرة في آخر لحظة قبل دخول السيَّارة، إذ إنه

لم يكن ليبتسم بلا سبب أمام من تريد أن تشتكِيَ له الحياة وجفافها، قد يجرحها هذا أو يستفزُّها.

صعد السيَّارة، ربَطَ حزام الأمان على صدره وانتقل بكل كيانه، بصدق، من حالة إلى نقيضها في أقل من ثانية. ما إن تنشَّقت تلك الصديقة رائحته حتَّى امتزجت بداخلها الرغبة بالبوح بشكواها، بالمقاومة لإخفاء شوقها لياسر، حبيب عمرها الذي يحسن لعب دور الصديق، أو لعلَّها بالفعل صديقته الآن ليس إلَّا.

بيده اليسرى، أطفأ ياسر راديو السيارة وسألها: «ما بالك يا عزيزتي؟ طمِّنيني؟ هل حدث طارئ ما، أو إنها تراكمات أضاقت عليك الدنيا؟».

انطلقت الصديقة تغتنم هذه الفرصة، فرصة أن ينصت إليها إنسان بكلِّ كيانه وتواجده. وراحت تستجلب كلَّ ما فيها من ظلمة دامسة وتجمِّعها وتمزجها بالدمع حينًا وبالأنين حينًا وتلقيها في وجه ياسر وراح يقاوم هو ليلها بطلاقةٍ ونورٍ وطاقةٍ لا تخفت في روحه. انقضى معظم الليل وانتصر نور قلب ياسر وكلامه، واستطاع أن ينير جوفها من جديد ويبدِّد ظلمتها عن رؤيتها لحياتها.

قالت جملتها الختاميَّة: «الحمد لله أنَّك في الدنيا».

انطلقت دمعتها الأخيرة من طرف عينها اليسرى نزولًا وكأنها تحمل شعلة التحوُّل من اليأس إلى الأمل لتسلِّمَها إلى طرف شفتيها، فتتحوَّل من الانقباض إلى التبسُّم، وترخي القلب وتطلق نفس الرئتين الذي تحبسه الدموع السابقة.

لحظ ياسر هذه الدمعة وقال بسخريته المحببة معجبًا باكتشافه: «أتعرفين، لقد اكتشفت أمرًا خطيرًا». وأتبع بسرعة قبل أن يقلقها: «اكتشفت أن دمع العينين يعمل كلٌّ على حدة، هو لا يندفق ولا ينحسر من المقلتين في الوقت نفسه، أليس كذلك؟ في معظم الأحيان نبدأ بكاءنا من عين قبل الأخرى، وقد ينتهي بنا البكاء ولم تبتلَّ المقلتان، لا أدري بعدُ سبب هذا. لعل قدرة احتمال العينين ليست متساوية، أو لعل العين اليسرى أرق لأنها ناحية القلب بما يحمل، أو لعل بكاء الأعين درجات بحسب العذاب والنعمة كدرجات الجنَّة والنَّار التي نسمع عنها، أو لعل هناك سببًا علميًّا سخيفًا صحيحًا يدحض كُلَّ ما سبق!».

ردَّت الصديقة وهي تستكمل ابتسامتها السابقة: «من يلحظ هذا؟ الآن بما أنَّك قد ذكرت هذا لي، سوف أنتظر بكائي بفارغ الصبر لأعرف إن كان هذا صحيحًا، مجنون أنت!».

وسط هذه اللحظة، تلقَّى ياسر رسالة قصيرة تقول: «أين أنت؟ نحن بدأنا لعب الورق، وهناك من يقول إنَّك سوف تخسر كعادتك».

رأى ياسر الرسالة وقال بعد أن اطمأن على صديقته: «أوصليني إلى الشباب في قهوة الليل».

راحا يتحدَّثان عن لا شيء حتى وصلَا إلى القهوة التي يجتمع بها الشباب، أصدقاؤه من الشارع. سلَّم عليها بيده واقتربت هي لتضمَّه إليها فتعانقَا ثم نزل.

ما إن وطأت قدمه داخل القهوة حتَّى تحوَّل، بصدق، من حالة إلى أخرى. ألقى تحيَّته الشهيرة التي سرقها من عادل إمام أيضًا: «سلامو عليكو يا لصوص يا أوباش يا زبالة المجتمع».

جلس بقرب طاولة الورق حول الأصدقاء وبدأ يعطي رأيه باللاعبين فيستفز هذا ويضحك على هذا، وهم بالطبع يردُّون له صاع المزحة صاعين ويهزؤون به بقدر ما يهزأ بهم وأكثر. أتى دوره فجلس وشريك له وخسر بالطبع كمعظم الأوقات، فقد كان لا يحسن لعب الورق ولا حساباته على الإطلاق. وتحوَّل باقي الليل إلى كلام وضحك وموضوعات مختلفة عن البلد والزوجات والنساء والأديان والسياسة وغيرها إلى أن تصاعد أذان الفجر من مسجد الدين القريب من القهوة. قام ياسر وقليل من الأصدقاء مستأذنين الباقين ليذهبوا إلى أداء صلاة الفجر، وبالطبع دَارَ الاستهزاء المعهود ولسان حال الموجودين من الشباب يقول: «ما هذا التناقض؟».

وصل الأصدقاء مع ياسر إلى مسجد الدين ودخلوا إلى مكان الوضوء وتبعهم ياسر دون أن ينزَعَ جوربَيْه حيث كان يمسح عليهما كسلًا؛ كانت لياسر رؤية مختلفة عن الدين، لا داعي لأن نتطرَّق إلى هذا. ما إن دخل باحة المسجد حتَّى قام الأصدقاء أصحاب اللحى المطلقة من شباب وكهول بإلقاء التحيَّة عليه بابتسامة لطيفة. كان بعضهم يراه الفتى الضال الذي سوف يعود يومًا ما، والبعض الآخر يراه ذلك المتفلسف خفيف الظل، لكنَّهم جميعًا يكنُّون له محبَّة خالصة يسمُّونها الحب لوجه الله، ولكن كان فيها شيء من وجه الدنيا. كان ياسر بالمقابل يبادلهم كلَّ الاحترام والمحبَّة لما قرَّروا أن يضحُّوا من أجل قضيَّة أو فكرة فهموها كما فهموها.

مع بزوغ فجر ذلك اليوم، اندَسَّ ياسر في سريره وضبط منبِّه هاتفه على الساعة الثامنة والنصف، مع أنَّه كان قد تواعد مع صديقٍ له على أن يلقاه الساعة الثامنة في ملعب كرة السلَّة ليتمرَّنَا معًا، ولكنَّه لا يتقن قيد المواعيد. أغمض عينيه لينهِيَ يومه الجميل برضى تام، فرآها تنتظره وكأنها لوحة أُلصِقت على أجفانِه من الداخل. إنها «رنين»، أنارت بسمتها، التي رآها لأقل من ثانية، ظلمة إغلاق العينين وكأن أحدًا أنار مصباحًا على أجفانه المقفلة.

قال محادثا نفسه: «*لم أرَ أحدًا يرتسم على أجفاني منذ زمن بعيد!*». وفتح عينيه آملًا أن تغيب، ولكنَّه وجدها ارتسمت على سقف غرفته، فاستدار يمينًا فرآها ارتسمت على مكتبته التي تقف غير منتظمة يمين سريره، استدار يسارًا فرآها ارتسمت على الحائط القريب جدًّا من عينيه، فابتسم وأدرك أن صورتها لن تزول، فقرَّر أن يُبقِيَ عينيه ناحية الحائط القريب لأنه يعطي أوضح صورة وأدقَّ تفصيل لبسمة رنين، وغفا على ذلك.

كان ذلك اليوم نموذجًا عن حياة ياسر وأيامه الملأى بمختلف أنواع الناس والحوادث والمشاعر والنقاشات. كان ياسر مفعمًا بالحياة والرضى عليها بكلِّ ما تحمل. كان يجيد التعامل معها ويتقن التفاعل الصادق مع أعلى قممها وأخمص وِدْيانها. قد أكون قد بالغت بوصف ياسر وتصويره على أنَّه متميِّزٌ جدًّا عن معظمنا، ولكنِّي في مكان ما أدرك أن هناك الكثير من ياسر، فياسر يمثِّل شريحة تتزايد مع هذا العصر، ولكنَّ انحيازي إلى ياسر أمر طبيعي، فهو بطل القصَّة، وقد التقيت به مرَّة في حياتي، ونحن ننحاز لمن نلقى. ما تميَّز به بطلنا أنه يملك القدرة -في زمننا هذا- على أن يتواجد بكل كيانه حيث يوجد، وكان الناس يطلبون أن يوجد حيث يوجدون لما يحمل معه من أمل، ولما يخفِّف عنهم من ثقل الحياة ويبالغ لهم في جميلها،

سواء كان يؤمن هو بذلك أم لم يؤمن. وكان بسبب هذا كلِّه أبعد البشر، بل ربَّما أبعد المخلوقات عن الوحدة.

أفاق ياسر في اليوم الثاني على عجلة وهو يشك أنَّه قد فوَّتَ تمرين كرة السلَّة، فتناول هاتفه مسرعًا ليتأكد. وجد أن الساعة قاربت الحادية عشرة فاستعاد هدوءه، إذ لا داعي للعجلة الآن.

تناول كتابًا من أولئك المستلقين على بطونهم عن جانبه الأيمن وراح يسطِّر بقلم رصاص ما يحاكيه من جمل وأفكار إمَّا ليتبنَّاها وإما لينقضها وإما ليحدِّث بها أصدقاءه. مرَّت ساعتان وهو على تلك الحال في تفاعل تام مع الكتاب، قام بعدها لغدائه. كان عادة ما يفتح هاتفه فَيَرى رسائل شتَّى الأصدقاء الذين كانوا قد أرسلوا في طلبه ليتغدَّى معهم. وكان هو يختار من بين هؤلاء ما يتناسب مع مزاجه في ذلك اليوم، ومع طبيعة الأحاديث التي يرغب أن يخوضَها وبالطبع مع نوع الأكل الذي يشتهيه، فإن لكلِّ نوع من الأكل ناسًا معيَّنين. في ذلك اليوم تحديدًا وعلى غير عادته قرر أن يتغدَّى بمفرده، قد يُسمَّى هذا بالقدر فيما بعد.

نزل من شقَّة الطابق السادس إلى ذلك الشارع المكتظ ومشى قاصدًا مطعمًا على ناصية شارع تفصل بينهما سوق للألبسة. كان يعشق المشي في هذه السوق والنظر إلى الباعة

والمتسوِّقين والسيَّارات والمارَّة، كان ببساطة يعشق تجلِّي الحياة وصخبها ولا يطيق الرتابة والاستكانة.

وبينما كان يمشي مزهوًّا في ذلك الشارع، ينقل عينيه من مكان إلى آخر ويدخل ارتجاج الشارع إلى أعماقه، وإذ به يتوقَّف فجأة ويبتسم ابتسامة المستهجن وينظر إلى السماء مخاطبًا أحدًا توارى فيها ويقول في صوت منخفض مسموع: «ألن تجعلَني أفهم كيف يحدث هذا أو كيف تفعل أنت بنا هذا؟ لماذا وكيف نلتقي بكلِّ ما يخطر ببالنا؟ هل هذا ما يُسمَّى توارد أفكار؟ وإن كان توارد أفكار، فمع من؟ معك أنت؟». أطْرَقَ رأسه وهو يدرك أنَّه لا يريد أن يفهم الآن؛ الآن يريد أن يستمتع بما لا يفهم.

حوَّلَ مساره على الفور ودخل إلى محل ثيابٍ أنيق، تناول أول فستان وقعت عليه يده، وراح يمشي متسحِّبًا بين الثياب المعلَّقة كالسارق. وفجأة قفز أمام امرأة تحاول أن تختار بين الملابس وقال بصوت عالٍ: «هذا سوف يبدو أخَّاذًا عليك بلا شك يا جميلتي».

قفزت رنين مستهجنةً علو الصوت وغرابة الجملة وكانت بعد لم تستوعب من الذي يحمل الفستان، فرفعت نظرها عن الفستان المحمول إلى وجه القائل ولم تلاحظه، وكأن صدمتها الأولى سلبتها عقلها لثوانٍ وسلَّمتها إيَّاه من جديد. بين ذلك

وذلك وقف ياسر منتظرًا تلك الثواني أن تمُرَّ، ومرَّت. قالت رنين، وهي تستعيد نفسها ورشدها: «بالفعل، ما ظلمك من قال إنَّك مجنون، ماذا تفعل هنا؟».

فقال ياسر شبه مازح: «ماذا تقصدين؟ لقد تبعتك منذ البارحة، وكيف لمن رآكِ وسمع ضجيج بسمتك الصامتة أن يكمل يومه بصورة طبيعيَّة؟ لمَّا رأيتك داخلة على الأصدقاء أدركت أنِّي لن أحتملَ أن تكوني في جلسة ويكون فيها صوت غير صوتك أو ضحكة غير ضحكتك، فخرجت وأمضيت ليلتي هائمًا تحت بيتك، وها أنا لم أعد أحتمل أن أراقبك عن بعد، ولم أعد أحتمل الجوع منذ أن وقعت عينايَ على ضحكتك وكأنها سلبتني كلَّ طاقتي»، فضحكت رنين لهذا الكذب الجميل، وقالت: «انتظرني خمس دقائق خارج المحل يا سخيف، أدفع الحساب ونذهب للغداء».

خرجت رنين من المحل مبتسمة، خطت نحو ياسر وناولته أكياسها ليحمِلَها وكأنَّها تعرفه منذ أن ولدت. مشَيَا معًا تجاه محلِّ السندوتشات المتواضع جدًّا على ناصية الشارع. لم يغيِّرْ ياسر المكان المقصود، فقد شعر أنَّها مثله تنسجم حيث حلَّت وتضفي رونقها على الناس والأمكنة وليس العكس. مشَيَا معًا وكأنهما زوجان منذ زمن، والتصق كلامهما وراحَا يكملان جمل بعضهما بعضًا بما تلاقيَا في الفكر والروح. تناولَا الغداء معًا،

ثم العشاء، وفصل بين الوجبتين شعور لم يسبق أن أَحَسَّ به ياسر من قبل. قال لها مودِّعًا على أمل اللقاء في الصباح الباكر: «أين كنت؟ لقد أفنيت عمري بحثًا عنك؟».

ردَّت متنهِّدة: «كنت أبحث عنك كذلك».

ركض ياسر إلى سريره وراح يحاور رنين وتحاوره عبر الهاتف، ولدى الاثنين سؤال أوحد يرجو كلٌّ منهما أن يحصل على إجابته من الآخر: «ما هذه الحالة التي نحن فيها؟».

لأول مرَّة أحس ياسر بقصور كلماته وعجْز فلسفته عن إيصال ما يدور في جوفه لمن يسمع. لقد كانت الكلمات والأفكار قبل ذلك لعبة يلهو بها ويروّض حتى من يرفض الإنصات. أمَّا الآن، مع أن رنين تتوق إلى الإنصات بكل كيانها، يشعر بعجزه عن وصف حالتهما.

كان ياسر يتجنَّب الكلام المكرَّر المستنفد، ويصر على التَّميُّز في كلِّ شيء، خاصَّة مشاعره. كان في ياسر خوف كبير غريب يحكم كلَّ تصرُّفاته وهو الخوف من أن يكون رجلًا عاديًّا. الناس تخشى الكبر في السن، تخشى المرض، تخشى الموت وغيرها مما نخشاه نحن العاديِّين، في حين كان ياسر يخشى أن يكون كأيٍّ مِنَّا. لقد أرهق نفسه واستنفد حياته محاولًا إثبات العكس. أمَّا اليوم وبكلِّ تواضع وبكلِّ تنصُّل من غباء نرجسيَّته

قال لرنين: «أصبحت أمام ضحكتك رجلًا عاديًّا، رجلًا وقع فيما يسمِّيه الناس بالحب من النظرة الأولى، رجلًا انحسرت دنياه في عينيك، لن تفهمي قيمة اعترافي هذا ولا يهمُّ، لقد جعلتني رجلًا عاديًّا بكل فخر».

صار ياسر يلقى الأصدقاء على اختلافهم والأهل والمستغيثين والمستنصحين ولا يلقاهم، صار بينه وبين دنياه حاجز وجوده الذهني مع رنين. صار رنين رنين يتصاعد في رأسه وقلبه وكيانه حتَّى ما عاد ياسر يسمع شيئًا آخر، وكلَّما رَنَّ بداخله أمر من حياته السابقة كالأهل والأصدقاء والرياضة والدين والقراءة والفكر والتأمل راح يسكته ليروِيَ نزعته ويشبع رغبته في التواجد مع رنين.

في كلِّ يوم وفي كلِّ فرصة كان يقرر أن يذهب بكل كيانه إلى أحضانها، اِختلَّ ميزان التناقضات التي ميَّزته وصنعته وقد رجحت بهم كلهم كفَّة رنين، صار مصنوعًا منها فقط. تحوَّلت رنين من عنصر في حياته إلى معيار يقيس به حياته، يرضى عن نفسه إن أرضاها ويسخط عليها إن أسخطها. وبهذا، أصبحت حياة ياسر دون أن يشعر تتراوح بين خانتين لا ثالث لهما، إمَّا مع رنين وإما بانتظار أن يصبح معها. فلم يعد ينتمي، ولم يعد يتأثَّر، ولم يعد يشعر، ولم يعد يتفاعل مع أيِّ شيء، تلك

هي الوحدة الأولى، لكن لحسن الحظِّ، كان لوحدة ياسر الأولى علاج اسمه رنين.

في بادئ الأمر، كان هذا ممتعًا وطبيعيًّا فقد بادلته رنين ذلك وأكثر، وتمادى الاثنان في نبذ حياتهما التي تجمعهما معًا، فلم يعودا يلبِّيان دعوات الأصدقاء ولم يعد هو يخفِّف وطأة الدنيا على أحد، ولم يعد هو أمل أحد فقد صدق حين قال: «لقد جعلتني رجلًا عاديًّا».

مرَّ الزمان وكلاهما على هذه الحال، ولكن لمرور الزمن آثارًا لا نلحظها كل يوم مع أنَّها حقيقة تتراكم مع كلِّ يوم. الزمن هو قاهر شغف البدايات يمحوها بنعومة كي لا نلاحِظَها إلَّا بعد فوات الأوان فلا تكون لدينا فرصة للاستدراك. شيء ما تغيَّرَ في ياسر أو في رنين أو في العلاقة التي تجمعهما.

دخل الصمت على أوقاتهما كما تدخل غيوم المغيب على ما تبقَّى من نور الشمس، فتسارع باستجلاب الظلمة. لم يذهب الحب، ولكن شيئًا ما ذهب. لا أعرف بالتحديد ما هو الشيء الذي يذهب دائمًا ولا أعتقد أن أحدًا يمكن أن يجزم ما هو، ولكنِّي أرجِّح أن يكون الغموض. عندما تتعرَّى أرواحنا تمامًا ولا يعد بينها ساتر يثير متعة الاكتشاف والمغامرة والمفاجأة، هذا سوف يشتُّ بنا عن الوحدة الثانية، فلندعه لقصَّة أخرى.

بدا لياسر أن الشغف برنين مرتبط بشكل وثيق مع رنين رنين، فقد راح صخب رنين يخفت في كيانه وفي عقله وقلبه كما يخفت شغفه لها. كأنه كانت في جوفه عاصفة وانقضت. أنصت ياسر إلى تلك الأصوات المنخفضة التي كان يسكتها في عهد رنين ولكن بلا جدوى. ملأ كيانه وحياته الصمت التام، فلا عاصفة رنين ما زالت تدوي فيه ولا صرخات الأصدقاء والأهل والمستغيثين والمستنصحين تشعره بوجوده أو تربطه بدنياه. كانت الوحدة الأولى فيها من يطلبه، ولكنه قرَّرَ أن يداوِيَ وحدته الأولى برنين. أمَّا الوحدة الثانية، فلم يكن فيها ما يطلبه ولم تكن رنين علاجًا لها.

كان بالفعل يخرج مع الأصدقاء ولكن حاجز الوحدة الثانية كان الزمن والانقطاع وخذلان الثقة وذهاب الاهتمام الصادق، وجفاف الحكايات والانفعالات. كانت الوحدة الثانية بلا علاج يزيد يومًا بعد يوم، تأخذ من روح ياسر ما يأخذه المرض الخبيث من جسد ضحاياه. ها هو ياسر الآن يحاول أن يعيد لنفسه جزءًا منها مستعينًا ببعض بقايا الأمل والقوَّة التي ورثها من ياسر ما قبل رنين.

أدرك ياسر الآن أن قرار السير بكلِّ كيانه في اتجاه واحد يعود على المرء بوحدتين، ثانيتهما لا تطاق. فَرَاحَ يحاول عبثًا أن يعيد لحياته ملامح الاختلاف التي كانت قد فقدتها بسبب

السعادة المؤقتة في أوقات رنين وأحضانها. ولكن الزمن لا ينتظر قرارًا نأخذه هنا أو هناك، وإن انتظر الزمن فإن الناس لا ينتظرون، وإن انتظر الزمن والناس فمن يضمن أن أنفسنا قد تنتظر أو قد تتماشى بسهولة مع قرار العودة؟ إن التغيير الذي يحدثه الانقطاع عن دنيا عهدناها أو عن أناس أِلفناهم أو حتى عن جزء من أنفسنا، قلَّما يمحو أثره قرار معاكس.

بدأ ياسر يستشعر ألم الوحدة الثانية، وراحت تزداد، في حين أخذت رنين حيِّزًا منطقيًّا معقولًا من فكره ووقته بعد المكان -المبالغ فيه- الذي كانت تملؤه.

سكنت الوحدة في الفراغ الذي تركته رنين وراحت تجول في طيَّاته كأميرة تسكن قصرًا كبيرًا وحدها. راحت الوحدة تستدعي الحنين حينًا والخيال حينًا والذكريات حينًا آخر، وتتسامر معهم في الليل والنهار وفي كلِّ عزلة يجلس بها ياسر، سواء أكان وحيدًا أو في حضرة أيٍّ كان.

بدأ ياسر يدرك أن في هذا الألم فرصة، وأن في الحديث الذي يدور بين زُوَّار رأسه المستوحد أملًا بالإبداع، حيث إنَّه كان قد قرأ في إحدى تلك الكتب «لا شيء يجعلنا عظماء إلَّا ألم عظيم».

بالفعل زاد إبداع ياسر مع زيادة ذلك الألم، راح يغوص في أعماق نفسه ومشاعره ويدقِّق في الفرد والمجتمع وفي

المنظومة التي تربطهما، وتفرَّغَ إلى التدقيق في عظائم الأمور وأبسطها ليستخلص من الدنيا دنيا أخرى. فبدأ يكتب ويتكلَّم من صلب مشاعره عما قد يخفِّف ألم الناس، ويسهِّل عليهم معيشتهم ودنياهم، ويعرض عليهم رؤيته من وجهات نظر غير التي ألفوها وسئموا منها. انتشرت كتابات ياسر وذاع صيته وصار يُستدعى لإلقاء محاضرات عن الحياة يحذِّر فيها من أشياء ويحفِّز من خلالها على أشياء أخرى.

ذات يوم وأنا أسير في حرم جامعتي لمحت ملصق دعوة إلى محاضرة عنوانها «حبٌّ ووحدتان» يلقيها أحد اسمه ياسر، لم أعد أذكر اسمه بالكامل، أعجبني العنوان فعزمت على الذهاب إلى المحاضرة وذهبْت.

اعتلى منبر إحدى قاعات الجامعة شاب يُدعى ياسر وأخبرني أنا والحضور من أساتذة وطُلَّاب بقصَّته مع رنين التي رويتها أنا لكم واختتم محاضرته قائلًا: «لا تنسوا يا أصدقائي أن قصَّتي مع رنين ليست قصَّة رجل وقع بغرام امرأة، فقد تكون رنين فكرة حب امرأة أو رجل بالفعل، أو قد تكون فكرة نجاح في العمل، أو في دراسة، أو فكرة جني الكثير من المال، أو فكرة الاستحصال على السلطة، أو حتَّى فكرة أمومة أو أبوَّة أو بنوَّة أو حتَّى فكرة دين، أو فكرة تغيير الدنيا أو غيرها من الأفكار التي تستحوذ على كامل كيان الإنسان وتستنزف حياته

من كلِّ معلم لا يتناغم وإيَّاها. فلا يدور رأسه وكيانه إلَّا حولها ويهمل وينسى أشياء قد تكون أكثر قيمة، سواء في حاضره أو في مستقبله. لقد رأيت أن الكثير من الناس يفقدون التوازن في لحظة أو في مرحلة من حياتهم ويقعون في الخطأ الذي وقعت أنا به. الرسالة الوحيدة التي أريد أن أتركها لكم هي أنَّ مصير من يعيش لفكرة واحدة أو من مصدر واحد: وحدتان، ثانيتهما لا تطاق. وشكرًا جزيلًا لكم».

بعد أن دار التصفيق مصحوبًا بضوضاء نهاية المحاضرة، قال ياسر كما هي العادة: «والآن لدينا بعض الوقت لنأخذ بعض الأسئلة».

رفعت أنا يدي طالبًا دوري في السؤال، كان سؤالي يحوم في رأسي، وكنت أنتظر اللحظة التي ألقيه على ياسر لأنقُض فكرة المحاضرة الوحيدة، فلمَّا حانت اللحظة وقفتُ وقلت: «جميل ما قلت وفيه شيء من الصواب، ولكن أين نذهب بكل العظماء الذين وهبوا حياتهم وكرَّسوها جميعًا لفكرة واحدة، بل لهوس واحد إذا صحَّ التعبير؟ أليس هؤلاء من يغيِّرون الدنيا؟ أليس هكذا دأب الأنبياء، والعلماء، والمخترعين، والمكتشفين، والفنَّانين، ورجال الأعمال الأفذاذ والأثرياء واللائحة لا تنتهي؟».

ابتسم ياسر لسؤالي وبدت عليه معالم الحيرة فيما إذا كان يريد أن يجيب باستفاضة أو يناور ويتهرَّب فقال مازحًا بعد

أن قرَّر الأولى: «شكرًا على هذا السؤال الصعب، مع أنَّه خارج موضوعنا بعض الشيء، ولكن لا بأس من أن نناقشه قليلًا. إن العظمة يا صديقي درجات، أولًا دعنا ننظر عن قرب ونفرِّق بين من ذكرت. صحيح أن الأنبياء قد كرَّسوا كلَّ حياتهم لدعواتهم، ولكن دعاوتهم شموليَّة تنتج حياة كاملة، وبذلك فإنَّها بطبيعتها وإن كرَّس لها الإنسان كلَّ حياته، هي أصلًا حياة مكتملة متوازنة. أمَّا ما أحذِّر منه أنا اليوم هو أن كثيرًا ممن اتِّبع نبيًّا دون آخر، على سبيل المثال، وذهب بكل كيانه باتجاه دين أو مصدر دين، فإنَّه يصدُّ أذنيه وقلبه عن أي شيء يتنافى مع ما قرر هو أن يعتقد. قد يبدو هذا طبيعيًّا، ولكن ما لا أراه طبيعيًّا هو أنه بسبب هذه الرؤيا الموحَّدة للدنيا، تراهم يقيسونها بمعايير دينهم، فتصغر دائرتهم وتضيق لتقتصر على من شارَكهم المعايير. هنا عليَّ أن أوضِّح أن هذا لا يقتصر على أهل الإيمان إطلاقًا، من المفارقات الغريبة جدًّا أن أهل الإلحاد يشتركون معهم في هذا. فترى كلَّ من ذهب بهذا الاتجاه بكامل كيانه ومجمل يقينه يقع تمامًا في المشكلة نفسها.

أمَّا بالنسبة إلى العلماء، فهذا يبدو دقيقًا في عالم اليوم. أمَّا إن اطَّلعنا على العلماء والمبدعين والجهابذة الأوَّلين الذين وضعوا أسس العلوم والفن والفكر وأبدعوا حتَّى خَطُّوا لنا خطوط دنيانا، فإنك تراهم في أغلبيَّتهم ممتزجي الشغف ومتشعِّبي

الاختصاص. كان الكيميائي رجل دين والفيلسوف طبيبًا، وعالم الفلك رسَّامًا، الفنَّان رياضيًّا، والشاعر صديق الناس. لا يخلو الأمر من استثناءات بالطبع، ولكن تعريف الإبداع هو عصارة أنماط وأفكار مختلفة، أي من مصادر مختلفة في ذهن البشر.

لنختم بآخر مجموعة ذكرتها، من رجال الأعمال الناجحين الأثرياء، فهذا تمامًا ما أريد أن أحذِّر منه. لقد أصبحنا نرى النجاح بمعايير معيَّنة، لهذا كانت نصيحتي: اِمشوا في أي اتجاه شئتم، ولكن دعوا مجالًا للعودة عندما تكتشفون أنَّكم قد ضللتم الطريق. أُدرِك أن التركيز بأمر واحد أو أولويَّة لحالة أو هدف أو حلم معيَّن يساعدنا على بلوغ ذلك، ولكن أقول إن الزمن أو الظروف تغيِّر الأولويَّات، لذلك دع لنفسك فرصة أن تستمسك بشيء ما عندما تنقلب الأولويَّات. على سبيل المثال، مع أني أبغض الأمثلة، في عمر معيَّن قد يبدو للمرء أن المال أو النجاح المهني أولويَّة، ولكن للشخص ذاته في عمر آخر قد يصبح الأهل أو الأصدقاء هم الأولويَّة. ولكن مع انتقال الأولويَّات، مؤلم أن تكتشف أنَّك قد قطعت كلَّ ما قد يوصلك بالأولويَّة الجديدة. ليس لدينا متَّسع من الوقت لنكمل يا صديقي أتمنَّى أن أكون قد أعطيتك إجابة ترضيك. نأخذ سؤالًا آخر».

رفعت امرأة تناهز الستِّين طالبةً الميكروفون، فأعطَوْها إيَّاه وقالت بصوت رفيع: «كم أتعجَّب أن أسمع من شاب في عمرك

هذا الكلام، لقد اعتقدت أن إحساس الشباب قد مات وذهب بلا رجعة».

ضحك ياسر والحضور لصوتها وكلامها فقد بدت خفيفة الدم وطبيعية جدًّا، وزاد هذا الضحك من إنصات الحضور واهتمام ياسر، فأكملت تقول: «لقد وهبت عمري لابني وابنتي والحمد لله أصبحَا «يرفعان الرأس»، ولكن لو كنت قد سمعت كلامك منذ قرابة ثلاثين عامًا لما كنت أشعر بما أشعر به الآن. لقد اخترت أن أتخلَّى عن وجودي وعن كياني في سبيل أبنائي. لقد اخترت التخلِّي عن كلِّ أصدقائي وأهلي وإخوتي من أجلهم، لقد اخترت أن أتخلَّى عن كل شيء لكي لا أفارقهم ولكي أتفرَّغ لهم تمامًا. والآن بعد أن كبرَا وانتشرَا في بقاع الأرض، هو يلحق رزقه وهي تلحق زوجها وأنا بين جدران الوحدة الثانية، تلك التي لا تطاق».

وخنقها البكاء ودمعت عينا ياسر والحضور بعد أن أضحكتهم تلك المرأة فأجلسها طالب يجلس قربها، ودار الصمت المدوِّي في قاعة الجامعة تلك، وقلت أنا في نفسي: «*هذا ما كان يقصد، ولكنَّ غروري وشغفي أَخَذَاني نحو العظمة والعظماء*».

نزل ياسر من على منبر القاعة ولا يزال بريق الدمع في عينيه. قد تكون هذه دموع التعاطف مع تلك المرأة الغريبة،

ولكنِّي أفضِّل أن أعتقد أنَّها دموع التعاطف مع نفسه، فقد بدا جاثمًا في الوحدة الثانية قبل أوانه. كانت هذه آخر مرَّة ألتقي فيها بياسر وكنت أتمنَّى أن أرى رنين، ولكن لا بأس، فلكل منَّا رنين يتبعها بكل كيانه لا محالة...

ليس كلُّ جبَّارٍ كاملًا

الجزء الأول: المقدّمة

كلُّ من أراد أن يُظهِر أهميَّة خاصيَّة من خواص البشر فوق سواها، ادَّعى أنَّها هي التي تفرِّق الإنسان عن الحيوان وسائر المخلوقات. كم سمعنا تلك الجملة على ألسنة من يفهمها ومن لا يفهمها: «إن ما يفرِّق الإنسان عن الحيوان هو العقل، أو هي الحرِّية، أو هي اللُّغة أو هي القيم أو الأخلاق أو السيطرة على الغريزة» وغيرها من الكلمات التي أثبت العلم والفهم والواقع بطلان معظمها على مرور الزمن، ومع تقدُّم البحوث في علم الأحياء وعلم النفس وغيرها. لكن الخاصيَّة الوحيدة التي لم يُثْبَت بطلانها بحسب العلم الحديث هي الخيال، وتخيُّل المستقبل باحتمالاته على وجه التحديد والتفاعل مع هذا المستقبل. هذا هو الاعتقاد السائد، حتَّى إشعارٍ آخر. قد يكون هذا بسبب عجزنا عن قياس قدرة التخيُّل عند الحيوان، ومتى امتلكنا القدرة على قياس مدى خيال الحيوانات زهق هذا الادِّعاء وتساوَيْنا معهم من حيث القدرة على تخيُّل المستقبل.

عندما قرأت المعلومة السابقة، قررت أن أنقض حقيقتها على الفور، تمامًا كما يحدث في رأسك أنت الآن. قلت في نفسي وكيف تشعر بعض الحيوانات كالقطط والكلاب بقدوم زلزال أو بركان أو ما شابه، ألا يثبت الاضطراب الذي تظهره هذه الحيوانات -قبل وقوع الحدث- نوعًا من قدرتها على تخيُّل المستقبل وكذلك التفاعل معه بِرَدَّة فعل كالخوف منه مثلًا؟ ليس هذا فحسب، لماذا تخزنُ بعض الحشرات والحيوانات أكْلَها من فصل إلى آخر كتلك القصَّة الشهيرة «النملة والصرصار»؟

فكما أخبرتك معلِّمة الحضانة الجميلة، في تلك القصة تقوم النملة بالعمل الشاق في فصل الصيف وتخزِّن أكلها، في حين يمضي الصرصار صيفه بالغناء. ألا يدل هذا على أن فصيلة النمل قد تخيَّلت حال الدنيا في فصل الشتاء القادم وأدركت في جزء من كيانها العضوي أو غير العضوي أنه في فصل الشتاء القادم سوف يتعذَّر عليها الخروج. ولم يقف خيالها عند ذلك بل أدركت أنها في ذاك الفصل الذي لم يأتِ بعد سوف يقلُّ الطعام في الداخل، وذلك سوف يؤدِّي إلى الجوع ومن ثم الموت. لذلك قامت تعمل بجهد في حَرِّ الصيف لتخزِّن أكلها وتهرب بذلك من مستقبل تخيَّلَته ولا تريد حدوثه. ألا تثبت هذه الأمثلة أن الحيوانات مثلنا في هذا؟

بعد أن سعدت بذكائي وقدرتي على النقض، أردف عالم النفس في جامعة هارفارد، دانيال جيلبرت، الأجوبة على تلك الأمثلة وأثبت لنا، أنا وأنت، أننا قد نكون مخطئين. إن ما تقوم به هذه الحيوانات هو فعل غريزي مرتبط بالحاضر ولا يمتُّ للمستقبل بِصِلة، ولا يثبت تفاعل تلك الكائنات مع نتائج المستقبل الذي تخيَّلته. فالكلب لا يتنبَّأ بحدوث زلزال في المستقبل ويخاف منه، بل يشعر أن هناك موجات أو اهتزازات تحدث في الحاضر، لا نستطيع نحن البشر أن نشعر بها. حين تحدث هذه الاهتزازات في الحاضر تسبِّب اضطراب حالة الكلب وتجعله يشعر بالخوف منها في الحاضر، وهو لا يربطها بما سوف يحدث بل بما يشعر به الآن.

أمَّا بالنسبة إلى النملة النشيطة والصرصار الكسول، فيؤسفني أن أخبرك أن معلِّمة الحضانة الجميلة لم تكن تعرف القصَّة كاملة. إن ما تقوم به النملة من تخزين للأكل ما هو إلَّا ردَّة فعل غريزيَّة لمؤشرات مناخية وحراريَّة وضوئية. في النملة، ومن شابَهَها في هذا، منظومة تجعلها إذا شعرت بالحرارة وأحسَّت بضوء الشمس الساطع فإن عليها أن تنقل حبَّات القمح من خارج منزلها إلى داخله الآن. الآن، هذه ردَّة فعلها الآن ولا تمتُّ إلى ما سوف يأتي بالمستقبل بِصِلة، لا الشتاء ولا الجوع ولا الموت القادم. وبشكل منفصل تمامًا، لدى

النملة منظومة مختلفة إذا شعرت ببرد الشتاء وعتمته بحثت عمَّا في جحرها لتأكله دون أن تربط هذا بجهدها المبذول في الماضي. قد يبدو هذا غريبًا بعض الشيء ولكن علماء الأحياء درسوه بتجارب مختلفة حيث وضعت حيوانات تشبه نملة القصص في صيف اصطناعي في المختبر وكان أكلها مضمونًا طوال العام، لكنها مع ذلك قامت تحاول أن تخزِّن الأكل. كذلك وضعت في شتاء مصطنع في المختبر، فدارت تبحث عن الأكل المخزَّن علمًا بأنها لم تخزن منه شيئًا. آسف إذا كنت قد شوَّهت صورة ذكاء النملة وحكمتها، ولكن الأحق أن يُمجّدَ من خلق تلك الأنظمة في تلك المخلوقات ليصون بقاءها بغير وعي منها. وإن لم تكن من هواة الإيمان والمؤمنين بفكرة الخالق، فلك أن تمجِّد بالمقابل نظريَّة التطوُّر البيولوجي التي أتت بهذه الأنظمة إلى تلك المخلوقات وحفظت بقاءها دون غيرها. لكل منَّا ما يمجّد، هذا ليس موضوعنا على أيٍّ حال.

أمَّا أنت يا عزيزي الإنسان، فلديك قدرة مختلفة، تتجاوز بها ربط الماضي بالحاضر. إنَّك من على كرسيك هذا، وفي هذه اللحظة تستطيع أن تتخيَّل مستقبلًا ما بدقَّة الرسام، ومن ثَمَّ فإنَّك قادر على أن تنقل نفسك للعيش فيه في ذهنك، والمعجزة لا تتوقف هنا، بل إنَّك قادر على أن تحدِّد طبيعة تفاعلك مع هذا

المستقبل، وتتكهَّن ما يتركه هذا التفاعل من شعور جميل أو مخيف أو سعيد أو مؤلم.

لكي تتضح الفكرة أكثر، تخيَّلْ معي أنَّك شاب أو شابَّة في مطلع العمر ولديه من المال ما يكفي ليخطِّط حياته إلى نهايتها (أطال الله عمرك). وإنَّك الآن تصمم المنزل الذي ستسكن فيه وأنت في الثمانين من عمرك بعد قرابة أربعين سنة من الآن. وقد وكَّلت في ذلك مهندسين مختلفين ليأتوك بتصميمين مختلفين. فأتى الأول مقترحًا عليك أن يكون البيت في وسط المدينة، ورسم تصميمًا أنيقًا لبيت كبير جدًّا من طابقين، يفصل بينهما سُلَّم ليس بقصير، الأول لغرف الجلوس والضيوف والمطبخ والثاني لغرفة نومك الكبيرة ونافذتها التي تطلُّ على شارع حيٍّ ينبض كالقلب بلا توقُّف. وجاء المهندس الثاني باقتراح أن يكون البيت في منطقة هادئة بعيدة بعض الشيء عن وسط المدينة، ورسم بيتًا بحجم معتدل من طابق واحد تتقارب غرفه جميعًا، تصل السيارة إلى وسطه في معظم أوقات النهار والليل. وعليك أن تختار ما بين التصميمين. في أيِّ بيت سيعيش العجوز الذي هو أنت بعد أربعين سنة؟

سؤال كهذا، بمثل هذه المعطيات، يحدث سلسلة من الأحداث في رأس معظم البشر وفي الغالب تكون النتيجة واحدة. ينتقل العقل بالجسد إلى المستقبل، فترتسم بالذهن صورتك وأنت

إمَّا رجل كهل وإما امرأة عجوز تعيش في ذلك المنزل، وتتخيَّل أنَّك حين ذاك لن تستطيع أن تصعد السُّلَّم بالسهولة التي قد تقفز بها فوقه الآن، وإن هذا سيعود عليك بالعناء والمشقَّة. قد يذهب البعض أكثر من ذلك ويستحضر من ذلك المستقبل الانزعاج والضيق الذي قد تتسبَّب به ضوضاء الشارع لكهل كبير، وقد يغالي البعض في أن يتخيَّل أن التصميم الثاني مهيَّأٌ لدخول سيَّارة الإسعاف لوسط البيت. كلُّ هذا يقتضي أن نختار التصميم الثاني منذ الآن. هذا قرار اتخذته في الحاضر بعد أن زرت المستقبلين (أو البيتين) وتفاعلت معهما في تلك الزيارة وارتأيت أن مستقبلك في بيت التصميم الثاني أجمل أو أكثر أمنًا وراحة، وسوف تستثمر في هذا بدءًا من الحاضر.

هكذا تسيطر تلك القدرة على حياتنا وترسم لنا بريشة الحاضر مستقبلنا، يا لها من قدرة تَحكُم حياتنا. قدرة أن نتخيَّل مستقبلنا وأن ننطلق من واقعنا لنتخيَّل واقعًا آخر. قدرتنا على أن ننتقل بكياننا وأنفسنا ومشاعرنا من حالة الحاضر إلى حالة مجرَّدة لم تأتِ بعد، ونُسقط عليها مشاعرنا التي تمتدُّ في الزمن. بالطبع فإن دورها لا يقتصر على اختيار بيوت المستقبل بل هي ترجح بكفَّة ميزان أي قرار نأخذه في يومنا أو شهرنا أو سنتنا.

في الحب...

نتخيَّل أننا إذا تزوَّجنا من نعشق وننتقل بأنفسنا راكبين جماح خيالنا إلى ذلك المستقبل، ونستشعر السعادة التي تنتظرنا في ذلك المستقبل. فنمضي لتحقيقه سعيًا وراء شعور السعادة التي ربطناه بها، كلُّ هذا انطلاقًا من الحاضر. في المقابل نتخيَّل واقعًا مستقبليًّا أننا انفصلنا عمَّن نعشق ونستشعر الألم الذي سوف يحلُّ بقلوبنا في ذلك المستقبل، فنسعى بكلِّ ما أوتينا من قوَّة لتجنُّبه، وإن كلَّفَنا ذلك أنفسنا. فكم من أناسٍ أمضوا حياتهم في بيوت لا يليق لها أن تسمَّى بيوتًا بسبب تلك المقدرة على تخيُّل حياتهم بعد الطلاق أو حياة أولادهم، فيقرِّرون الإبقاء على الحاضر مهما كان مؤلمًا لأن خيال المستقبل أشدُّ ألمًا، هذا ما ارتأوه من زيارة ذلك المستقبل. وبعضنا ينتقل بنفسه فردًا بلا شريك إلى المستقبل، يزوره وحيدًا يمضي فيه دقيقةً أو اثنتين فيشعر في زيارته بالوحدة والضجر والغربة ويعود من تلك الزيارة إلى آنِهِ (الآن) فيتزوَّج خوفًا ممَّا قد رآه في زيارته.

في المال...

نتخيَّل ونحن متوسِّطو الثراء، أو حتَّى أغنياء، كيف سيكون حالنا إن افتقرنا وكيف سنشعر إن حكمنا العوز وعجزنا أن نقتنِيَ لأنفسنا أو لمن نحب طيب المأكل وأنيق الملبس وفاره المسكن ورفيع العلم وراقي الرعاية الصحيَّة. فنمضي أعمارنا في العمل والجهد، كالنملة المذكورة أعلاه، لنتجنَّب ذلك المستقبل ونهرب ممَّا سوف يجرُّ في ذيله من ألمٍ تخيَّلناه مشدود الوثاق بذلك المستقبل. كم منَّا أبقى على عملٍ لا يكاد يطيقه، يمتصُّ منه الروح صباحًا بعد صباح مع كلِّ رنَّة منبِّه.

في الدين...

إن الصور الذهنيَّة التي ترسمها الأديان هي وسيلة تمسك بنا نحن البشر من تلك المقدرة التي تميِّزنا. فينقلوننا إلى مستقبلين مختلفين ويدعوننا نتخيَّل شعورنا فيهما. والمتميِّز منهم هو من يعين خيالنا على أن يستحضر بدقَّة أكبر الشعور الملتصق بالصُّورة الذهنيَّة المستقبليَّة. يصفون جهنَّم بما فيها من رعب دقيق فنتخيَّلها ونستحضر ألمها من المستقبل فننصاع للخير الذي يعرِّفه ذلك الدين، ويصفون الجنان بما فيها من جمال فنتخيَّل السعادة التي لا يدخلها شقاء، فننصاع من جديد لنحصِّل ذلك المستقبل الذي وعدنا فيه هذا الدين دون سواه. وقِسْ على ذلك، نتخيَّل ألم العقاب فننصاع للقوانين، ونتخيَّل ألم التغيير فنبقى على حالنا.

نحن مَدينُون لتلك القدرة بالفعل، فلولاها لتعذَّرَ علينا أن نميل إلى مستقبل ونتجنَّب آخر، وما استطعنا المضي في قرارات تتناسب وما سيأتي وإلغاء ما لا يتناسب وإياه. ودَيْننا ليس فقط فرديًّا يلزمني ويلزمك، ولكنَّ الإنسانيَّة جمعاء مَدينة لتلك القدرة. فلولاها لما تخيَّلنا دنيا بلا مرض، ولا ألم، وما قد تأتي به من شعور مريح بالأمان، وما كان للطبِّ أن يتطوَّر. لولاها لما تخيَّلنا دنيا تربطنا فيها وسائل النقل، وما كان للسيارات والطائرات أن تسهِّل علينا ما قد سهَّلته. ولولاها ما كُنَّا قد تخيَّلنا

دنيا ملأى بالتكنولوجيا والاختراعات والاكتشافات التي تمَّت على وعد أنها ستنقلنا إلى مستقبل تخيَّلناه في الماضي ونحيا به الآن.

لا يقتصر دَينُنا لتلك القدرة على ما سهَّلته من أشياء ماديَّة وتطوُّرات علميَّة، بل يتعدَّى ذلك ليشمل ما سهَّلته في إرساء الروادع التي تحدِّد تعاملات الناس فردًا بآخر أو بجماعة. إن انتقال من لديه نزعة شرٍّ أو إجرام في زيارة نحو مستقبله إن أجرم يردعه بعض الشيء عن ارتكاب جرمه. إن من استحضر كيف يشعر منزوع الحرية في زنزانته الضيقة، سوف يراجع نفسه قبل أن يرتكب ما قد يؤدِّي به إلى ذلك المستقبل.

لا شكَّ أن لتلك المقدرة الفضل في نقلنا كفصيلة من مكان إلى مكان أسمى، وقد نحتاج إلى مجلَّد لسرد محاسنها، ولكن جدير بالذكر أن في تلك المقدرة قصورًا وفي قصورها قد تضيع الحياة ويضلُّ المجتمع وينكسر ما يعرِّفنا كبشر. وقد تكون من أحد أهم الأسباب لما نحيا به من مشكلات اجتماعية أو فرديَّة.

إن الذاكرة نزهة العقل في الماضي، والخيال نزهته في المستقبل، وكلاهما بعيدٌ كلّ البعد عن الكمال. إن عقولنا أنفسها لا تنطلق في نزهاتها إلَّا من الحاضر، وهنا يكمن القصور. فهي تنفذ خارج الزمن من قلب الآن وبذلك تعجز أن تعطي صورة مكتملة من نفس زمن الصورة الذهنيَّة المستقبليَّة.

لنبسِّط هذا الكلام، هل سبق أن ذهبت لتبضّع المأكولات وأنت صائم أو جائع؟ إن معظم من يقومون بذلك وهم في حالة جوع يبالغون كثيرًا بالشراء أو الطلبات. وهذا تمامًا هو قصور العقل عن محاكاة حالة في المستقبل بشكل مكتمل. لنعقِّد الكلام من جديد، ينتقل بنا خيالنا نحن ورغبتنا الحاليَّة بالأكل إلى المستقبل ويُنشئ صورة ذهنيَّة مستقبلية مفادها أننا سوف نسعد ونحن نأكل، وهذا صحيح. ولكن ما يفوت عقلنا وخيالنا أن جوعنا بعد الطبق الأول لا يطابق جوعنا الآن، ولا ما بعد الطبق الثاني يطابق ما بعد الأول وهكذا. فهو يتخيَّل أنَّه سيسعد بالأكل فيشتري منه الكثير وينسى أن يتخيَّل أن جوعه سوف يقلُّ أو يتغيَّر فيرمي ما اشتراه بعد شعوره بالتخمة. هذا مثال بسيط لشرح أن القصور الأوَّل هو اعتبار أن حالتنا نحن في الحاضر تشبه إلى مدى كبير حالتنا في المستقبل، فنقرر من تلك الفرضيَّة بوعيٍ أو بغير وعيٍ.

أمَّا القصور الثاني، فهو أن العقل يعتبر أن دنيا المستقبل تشبه إلى حدٍّ كبير دنيا الحاضر، إلَّا بالعنصر الذي يريد هو أن يتخيَّله، فهذا متغيِّر والباقي شبه ثابت. لنحاول التبسيط، أتذكر التصميمين لبيتك المستقبليِّ؟ لعل ما يستطيع أن يتخيَّله العقل هو اختزال شديد لكل ما يمكن أن يتغيَّر في الدنيا بعد أربعين عامًا. كلُّ ما دار في أذهاننا لنقرِّر بيت الطابق الأوحد له علاقة

بصورتنا ونحن عجزة. ولأنَّ معظم الناس يختزل تغيير الدنيا، يفوتهم أن يتخيَّلوا أن الطب بعد أربعين عامًا لن يكون كما هو عليه الآن، وقد يكون المرء في الثمانين في ربيع شبابه، وقد لا يكون ذلك الشارع مزدحمًا كما هو الآن، وهكذا. أنا لا أقول إنها مسألة سهلة أو صعبة أن نتخيَّل المستقبل، كلُّ ما أودُّ قوله هو أن علينا أن نعِيَ أننا لا نستطيع أن نحاكِيَه بشكل كامل، وكذلك لن نشعر تمامًا مثل ما نتخيَّل أننا سنشعر فيه لأننا منطلقون من الآن.

لو انطبَق هذا على المأكل والمسكن فقط لما كان أهلًا للذكر والاستفاضة. هو ينطبق على العشق، والزواج، والطلاق، والخيانة، والدين، والعمل، والمال، والاكتئاب، والحرمان، والانتحار، والتضحية، والحريَّة، وغيرها. فترى شوق العُشَّاق الثائر يبرد بعد اللقاء، وكانوا قبل ذلك يحسبونه خالدًا. فإنهم قد تخيلوا دوام الحب والحالة وبالغوا في التركيز على عشقهم ونَسُوا أن يتخيَّلوا ما يجلبه الزواج بتفاصيله المهمَّة أو السخيفة من خلاف الأمهات والآباء أو ما قد يجلبه الفقر أو ما قد يجلبه الولد الأول. لعل من تخيَّلَ كيف سيبدو وشم هذا الرمز أو ذاك على جسده بعد عشرة أعوام لَفكَّرَ أكثر. لعل من قام بالانتحار قد تخيَّلَ مستقبلًا بعناصر متكاملة غير ألمه أو جرحه في ذلك اليوم، لما قرَّرَ الموت في يومه. إن الخيال قدرة جبَّارة، ولكن ليس كلُّ جبَّار كاملًا!

ليس كلُّ جبَّارٍ كاملًا

الجزء الثاني: الرواية

إن ما وَرَد في الفصل السابق من تحليل وتوصيف قدرتنا على الخيال والأخطاء التي نقع فيها بسبب تلك القدرة، كان تمهيدًا للقصَّة التالية التي يتجلَّى بها قصور الخيال. هذا القصور الذي أودى أو قد يودي أو هو يودي حاليًّا بحياة الإنسانيَّة.

تتشابه أسماء شخصيَّتين واردتين في قصَّتنا التالية مع أسماء شخصيَّتين وردتَا في رواية «أولاد حارتنا» للكاتب الكبير نجيب محفوظ.

قد تعتبر هذه محاولة منِّي للاختصار أو توضيح المقصود من القصَّة دون الاضطرار إلى إعادة تصوير الإيحاء والرمزيَّة التي استطاع الكاتب العظيم أن يصورهما.

لهذا فقد استعرنا اسمين من القصَّة: «الجبلاوي» و«إدريس». وكل ما سوى ذلك، من أحداث وشخصيَّات فهو من نسج الخيال

أو قراءة مختصرة للدنيا أو لأحد أشكال تاريخها وحاضرها. يمكنك ألّا تأبه لهذا على الإطلاق، وتعتبره فقط تشابه أسماء.

الرواية:

يُحكى أن أحدًا اسمه الجبلاوي، كان يعيش وامرأة في مكان قد استطاع بحوله وقوّته أن يجعله جنّة ومرتعا تملؤه الراحة والأمن والرفاهيّة. كان الجبلاوي جبّارًا قويًّا غنيًّا كريما حسن الخلق صاحب رحمة لا تنتهي. لا أحد يعرف من تكون تلك المرأة، بعض الذين عايشوهما يقولون إنّها ابنته، آخرون يعتقدون أنّها زوجته، وآخرون يعتقدون أنّها خادمته. لنطلق عليها اسم «إنسانة».

لم تكن إنسانة تعرف شعور الحاجة أو الرغبة بأي شيء، فقد كانت تعيش في فيء الجبلاوي وكان يؤمّن لها كلّ شيء دون أي عناء منها. لم تكن حتّى بحاجة إلى أن تفكّر في الحاجة.

كان الجبلاوي لديه بعض المتطلّبات البسيطة، وما إن لبّتها له إنسانة دام الودُّ، ودام الظلّ، ودام عدم الحاجة إلى التفكير أو العناء. وبالطبع لم تكن لإنسانة حاجة إلى أن تتخيّل غدها، حيث إن مستقبلها بدا مضمونًا ما دامت بعهدة الجبلاوي. إنّه

يعطي انطباعًا بأن عِزَّه دائم قد يمتدُّ من جيل إلى جيل دون أن ينضب.

مع ذكاء إنسانة الشديد، إلّا أنّها ببساطة لم تدرك معانِي كثيرة من التي ندركها نحن اليوم كالعمل والتعب والعجز والحزن والمرض والعوز والقهر والذل والفقر وإلى ما هنالك مما ينغِّص حياة من لا يستطيعون أن يستظلُّوا بقويٍّ يحميهم كما استظلَّت هي بالجبلاوي.

في يوم من الأيام، نشأ خلاف بين إنسانة والجبلاوي، لا يعرف حقيقته إلا القليل. يقال إنه خلاف على أمر بسيط كتُفَّاحة أو ما شابه، وتطوَّر مع القيل والقال والجدال ووصل إلى أن طرد الجبلاوي إنسانة من مرنعه.

كان فراقهما بعد العشرة صعبًا جدًّا عليهما. كانا يدركان أن هناك لقاءً آخر لا محالة، وأنهما لن ينقطعا تمامًا مهما حصل، وأنه مهما تباعدت المسافة بينهما، فسيبقى بينهما حبل موصول غير مرئي يتابع أحدهما الآخر ويكلِّمه ويستأنس به، ولكنهما افترقا، لحكمة لا يعلمها إلّا اللهُ سبحانه وتعالى.

هبطت إنسانة في أرض خالية أخرى وحيدة مكسورة، ولكن في عقلها نوعًا من الغلِّ لما حدث، وفي قلبها وروحها حنين لما فقدته من ذلك الشعور الذي أحسَّت به في مرتع الجبلاوي.

اِستظلَّت إنسانة من وهج الشمس الحارقة تحت شجرة مثمرة صغيرة. وبدأ يقرصها الجوع والعطش والتعب فاقتاتت مِمَّا حولها. ولكنَّها لاحظت أمرًا عجيبًا.

لاحظت إنسانة أن هذه المشاعر الآنيَّة يمكن السيطرة عليها، ولكنَّها تصطحب معها شعورًا آخر لا يزول بزوال الشعور الأول.

أحسَّت أنها قد جاعت فأكلت، فذهب الجوع، ولكنَّه ترك خلفه شعور الخوف من الجوع في المستقبل. أحسَّت أنها عطشت، فشربت، فارتوت. ذهب الماء بشعور العطش، ولكنه لم يذهب بشعور الخوف من العطش في المستقبل. لم يكن لها عهد بهذا النوع من الشعور، فقد كان الماء يمحو العطش ولا يبقى منه شيء، حيث كان الجبلاوي متكفِّلًا بالمستقبل. صارت تتراكم أسئلة من نوع جديد في ذهنها بسبب هذا الشعور الدائم، الذي أسمته «القلق».

راح هذا الشعور الذي يحاكي المستقبل المجهول يلقي بتلك الأسئلة في ذهن إنسانة: «ماذا لو لم أجد ما أقتات به أو أشربه عندما أجوع أو أعطش من جديد؟ ماذا لو أكلَتني الضباع أو أتاني مجرم أو مغتصب أو لصٌّ في هذا العراء؟ ماذا لو انقطعت عن الناس والدنيا وبقيت وحيدة هنا؟ ماذا لو مرضت ولم أستطع أن أتداوى؟ ماذا لو... ماذا لو... ماذا لو...؟» أبكاها

خوف شديد من تلك الأسئلة الجديدة وراحت تبالغ بعواقب كلِّ سؤال من تلك الأسئلة.

سمعت صوت أوراق الشجر اليابسة تتكسر تحت أقدام متناقلة. التفتت ناحية الصوت فوجدت رجلًا لم تتضح ملامحه بعدُ يمشي نحوها ببطء فصرخت به قائلة: «من أنت؟ وماذا تريد؟».

أجاب الرجل وهو يكمل سيره نحوها: «لا تخافي يا ابنتي، لن أوذِيَك، لقد تبعتك منذ أن طُردت وأريد أن أساعدك».

قالت: «من أنت؟ ولماذا تلحق بي؟ ومن قال إني أريد المساعدة؟».

مع اقتراب الرجل، بدأت إنسانة ترى ما تنمُّ عنه ملامحه. كان رجلًا طاعنًا في السن تبدو عليه الحكمة والحنكة ويشعُّ من عينيه شرر مريب يغطِّيه هدوء الكبر وشيب اللحية.

قال الرجل مجيبًا: «اهدئي يا عزيزتي، اسمي إدريس، ولم آتِ إلَّا لمساعدتك على تخطِّي ما تسبب به الجبلاوي».

قالت: «أتعرف الجبلاوي؟».

قال إدريس: «نعم، أعرفه تمام المعرفة. أنا كذلك لست على وفاق معه، ولكن هذا ليس مهمًّا. أستطيع فقط أن أساعدك

بأن أريك طريق إنتاج حياة تشبه التي كانت لديك من قبل أن تطردي».

قالت إنسانة: «وكيف هذا؟ منذ أن حللت بهذه المنطقة، وأنا في خوف وقلق دائمين من فكرة المستقبل؟ ألديك ما قد يخفِّف ثقل هذه الأفكار؟».

قال إدريس: «ما زلت لم تكتشفي قدراتك بعد، خاصّة تلك التي لم تكوني بحاجة إليها. إن لديك قدرة قد تحوِّلين بها هذه المنطقة إلى مرتعٍ يوازي مرتع الجبلاوي متعة وسعادة وراحة، وكلُّها سوف تعيد إليكِ الشعور بالرضى والأمان وتتمكَّنين بها من التغلُّب على القلق من المستقبل».

قالت: «وما هي تلك القدرة؟ وكيف أستعملُها؟».

رد إدريس: «إنَّ جُرح الماضي والحنين إليه ندركه بالذاكرة، أمَّا المستقبل والتحكُّم فيه فندركه بالخيال. إن الخيال هو ملجؤك الآن لتُنتِجي الحياة التي تريدين. بالخيال تستطيعين أن تحدِّدي أهدافًا للمستقبل، وتستطيعين أن ترسمي خططًا متناسقة للوصول إلى تلك الأهداف. وبالخيال تتنبَّئين ما سيشعرك به ذلك الواقع المستقبلي، الذي هو أصلًا نتاج الخيال. كلُّ ما عليك أن تفعليه يا صديقتي أن تتخيَّلي مستقبلًا ترينه جميلًا. ولن تعودي بحاجة إلى الجبلاوي ولن تنحني إلى مرتعه)).

سمعت إنسانة هذا الكلام وبدأت تراودها قوة لم تدركها من قبل، قالت لإدريس: «وهل يستطيع أحد أن يسيطر على المستقبل؟».

ابتسم إدريس بخِسّة بائع يدرك أن بضاعته الفاسدة قاربت أن تباع وقال: «لم تكن هذه القدرة موجودة قبلك يا إنسانة، ولكن أعتقد أن التخطيط لمستقبل بدقَّة قد يعطينا هذه السلطة، وقد نمسك بها زمام الزمن وزمام حياتنا كمن يمسك لجام فرس يركبها ويُسَيِّرها كيفما يريد».

كأيٍّ منَّا، مالت إنسانة إلى الفكرة التي زرعها إدريس في رأسها، فهي فكرة توهم بالقوَّة والجبروت. قد تكون بالفعل السبيل إلى إعادة إنشاء نسخة من مرتع الجبلاوي. ولكن من عناصر وطرائق مختلفة كلّها تصبُّ في أمل أن تهبها شعورًا سمَّته الأمان أو الراحة أو السعادة. هي لا تدري بالفعل ما ذاك الشعور الذي خسرته عندما طردت من كنف الجبلاوي، فراحت تبتدع مسمَّيات ومفاهيم وحالات، وتحاول إسقاطها على ذلك الشعور. وبذلك، فإن خيالها عن ذلك المستقبل كان مشتَّتًا بحكم تشتت تعريفها لذاك الشعور الغابر.

راحت إنسانة تستكشف قدرة الخيال التي تعرَّفت عليها للتوِّ. كان الهدف واضحًا في ذهنها، تريد أن تسترجع ذاك الشعور. وبدأ الخيال يرسم الطريق إلى الهدف. كان أول

نتاج هذه القدرة، تخيُّلها أنَّها سوف تسترجع ذلك الشعور بعدم الحاجة إذا استحوذت على كلِّ ما تحتاج دون انقطاع أو قلق من الانقطاع. فراحت تشرِّح هذا الشعور وتعالجه بتقطُّع. وراودها في صمت ما يلي:

«في مرتع الجبلاوي لم أكن أشعر بالخوف، لذلك عليَّ أن أحمِيَ نفسي ممَّا قد يشعرني بالخوف، لعلَّها الأسوار والمدن والأسلحة. في مرتع الجبلاوي لم أكن أشعر بالجوع ولا العطش، عليَّ أن أُؤَمِّن من هذا ما لا ينتهي، لعلَّها الزراعة والصناعة والعلوم التي تبنى عليها. في مرتع الجبلاوي لم أكن أشعر بالمرض ولم أكن أخاف الموت، عليَّ أن أحاربَ هذا، لعلَّه الطب والعلوم التي يرتكز عليها. في مرتع الجبلاوي لم أكن أشعر بالوحدة والملل، عليَّ أن أتخطَّى هاتين، لعلَّها المواصلات وسبل التواصل».

منذ ذلك اليوم السحيق في أعماق الماضي، راحت إنسانة وذريَّتها تعمل بجهد للوصول إلى تلك الغايات. لا نعلم بالتحديد كيف ومتى أنجبت إنسانة، ولا ندري إن كانت حامل حين سقطت من مرتع الجبلاوي، لكنَّها الآن تمتلك ذريَّة كبيرة منتشرة في بقاع منطقتها.

راحت إنسانة تتكاثر في كلِّ صعيد سعيًا وراء ذلك الشعور، لكنَّها من حين لآخر تنسى لماذا تعمل من شدَّة استغراقها

بالعمل. راحت تبني الأسوار والمدن في محيط منطقتها تلك، وراحت هذه المنطقة تكبر وتتباعد. راحت تطوِّر الزراعة والحصاد والإنتاج والتوزيع في منطقتها. راحت تبحث عن سبل محاربة المرض فاكتشفت الطب وطوَّرَته. راحت تصنع الأسلحة وتبني طرق المواصلات والتواصل بينها وبين غيرها وبين أفراد ذريَّتها. واليوم تتربَّع إنسانة على عرش تلك المنطقة كاملةً.

لقد نجحت إنسانة، نوعًا ما، ببناء ما تصوَّرته في خيالها منذ ذلك اليوم التاريخي الذي طردت فيه من مرتع الجبلاوي، والتقت إدريس واكتشفت قدرة الخيال الجبارة.

منذ بضع سنين، ولدت لحفيدة من أحفاد إنسانة بنت جميلة، وما إن رأت إنسانة عينَيْ تلك البنت المضيئتين اللتين تَنُمَّان عن جرأة غريبة حتى أسمتها: «سؤال».

ترعرعت سؤال في أرجاء قصر إنسانة وسارت به كالماء بين التصدُّعات. وبما أن لأسمائنا النصيب الأكبر من هويَّتنا، كانت سؤال نادرًا ما تتفوَّه بشيء غير الأسئلة. كانت إنسانة تتجاهل سؤال وتتهرَّب من مواجهتها، حيث كانت تشعر أن فيها جرأة وإصرارًا غريبين على استيضاح ما ليس واضحًا بطبعه.

في يومٍ من أيام الصيف الحارَّة هذه، اجتاح إنسانة شعور غريب وتهاوت بداخلها ثوابت راسخة. أحسَّت اليوم أنه مع كلِّ

ما وصلت إليه. هناك شيءٌ أساسيٌ ما لم يتحقَق. أدركت أنها قد تكون بحاجة إلى إعادة دراسة الخُطَّة الأولى. مع غرورها ونفوذها وقوَّتها إلَّا أن فيها شيئًا من الحكمة تعلو وتخبو بحسب الحاجة. وهي اليوم لم تعد تستطيع أن تتجاهل الحاجة إلى التغيير أو حتَّى الاعتراف بالفشل وإرساء أمل جديد بطريقة أخرى مختلفة تمامًا. وللمرَة الأولى أرسلت في طلب سؤال فقد لاحت عيناها وجرأتها في رأس إنسانة.

حضرت الصبيَّة سؤال لبهو القصر وبعد السلام والتحيَّة، قالت لها إنسانة: «حادثيني يا سؤال، أراك تدورين في القصر محاولة الحصول على أجوبة، اليوم أتساوى أنا وأنت في هذا البحث. لديك فرصة لتحصلي على كلِّ الإجابات مني أنا شخصيًا. وقد تساعدينني على أن أجد أنا أيضًا أجوبتي التائهة من خلال أسئلتك الجريئة. اسألي ما شئت بلا خوف».

اقتربت سؤال وكعادتها وكَاسْمِها ردَّت بسؤال: «أنا أساعدك؟».

قالت إنسانة: «نعم، أعتقد أن كلَّ من يحاول أن يمنحني الأجوبة يخفي عني حقيقة ما، بقصد أو بغير قصد. حيث يخدِّر طلبي للحقيقة بحقيقة يراها هو ولا يريد أن يتحدَّاها. سَلي ما شئت, أنا بحاجة إليك مع صغر سنك وقلة خبرتك)).

فقالت سؤال وقد قررت ألَّا تفوِّتَ تلك الفرصة: «كيف بدأت قصَّتك؟».

فروت لها إنسانة قصَّتها كما أوردناها سابقًا.

قالت سؤال: «وأين أنت الآن من تلك الأهداف التي صوَّرها لك خيالك آنذاك أنَّها الطريق إلى الشعور الذي افتقدته في مرتع الجبلاوي؟».

قالت إنسانة وقد بدأ الحديث يوحي بالنِّديَّة التي أرادتها إنسانة: «أتدرين يا سؤال، أعتقد أنَّني قد حقَّقت أو قاربت من تحقيق كلِّ تلك الأهداف. أشعر أنني قد مشيت الطريق تمامًا كما خطَّطت. أعتقد فعلًا أن الخيال يهبنا سلطة على الزمن ويزيد فرصنا في تحقيق الأهداف التي تخيَّلناها».

وأكملت تقول كمن يراجع نفسه وماضِيَه: «لقد تخيَّلت مستقبلي بلا جوع، وها أنا الآن قد وفَّرت لنفسي ولمعظم أولادي الوفرة من المأكل والمشرب. آنذاك، تخيَّلت مستقبلًا بلا خوف، وها أنا اليوم أملك ترسانات وحصونًا وأسلحة تحميني من كلِّ ما خفت منه في ذلك اليوم، ليس هذا فحسب، بل أنا اليوم سيِّدة منطقتي أحمي من أريد مِمَّن يعيش في كنفي وأتخلص مِمَّن أريد. لقد تخيَّلت مستقبلًا بلا موت أو مرض، وقد حقَّقت جزءًا من هذا لقد امتدَّ عمري وأولادي في السنين الأخيرة امتدادًا

كبيرًا، وقد قضيت على الكثير من الأمراض والأوبئة التي كانت تبيد أولادي قبل هذا اليوم. ما زلت أعمل على هذا الهدف وأتطوَّر نحوه في كلِّ يوم. لقد تخيَّلت مستقبلًا لا أشعر فيه بالوحدة لا أنا ولا أولادي، وها أنا اليوم أربط مشرق منطقتي بمغربها، فلم يعد لي ولد لا يرتبط بي أو بأخيه عبر كلِّ السبل التي اخترعتها منذ ذلك الزمن. ولكن...».

صمتت إنسانة لبرهة وقالت بصوت يتضاءل: «أعتقد أنني حقَّقت أهدافي».

قالت الصبيَّة الداهية سؤال، وقد أحسَّت أن في إنسانة شيئًا خفيًّا فارغًا: «ولكن ماذا؟».

«أتكتمين سرًّا بيننا» قالتها إنسانة كالصبيَّة التائهة التي تحتاج إلى من يرشدها، ولكنها تخشى الإفصاح والفضيحة.

قالت سؤال مطَمْئنةً إيَّاها: «أخبريني، أعدك ألَّا أخبر أحدًا، ولكن ماذا؟».

أحسَّت إنسانة بالأمان إن أفصحت، فقط لأنَّها تريد أن تفصِحَ ليس إلَّا، قالت: «لقد حقَّقت أو شارفت على تحقيق أهدافي، ولكني أعتقد الآن أن المشكلة تكمن في هذا بالتحديد. لقد خذلتني تلك القدرة التي عرَّفَني عليها إدريس. إنَّها نعمة بالفعل، أنا لا أنكر هذا، ولكنِّي قد بالغت في الاعتماد عليها

وبالغت بنظرتي إليها. فقد اعتبرتها أقرب إلى الكمال ولا يمكن أن تخذلني. كان هذا طبيعيًّا مع كلٍّ ما رأيت منها من كمال على مرِّ السنين، ولكن كان كمالها قصير الأمد، ومع الوقت بدأ يتَّضح قصورها».

قالت سؤال: «وبماذا خذلتك؟».

ردَّت إنسانة: «لم تخذلني تمامًا، ولكن دعينا نقول إنَّها خيَّبت ظنِّي بكمالها. وكان هذا في موضعين أولهما أخطر من الثاني. أمَّا الخذلان الأول فكان أن ربطت لي الأهداف بشعور مرجوٍّ يلازم تحقيقها. وبسبب هذا الربط، انغمست أنا وأولادي بالسعي الدؤوب وراء الأهداف معتبرين أنها بوَّابات الشعور والممرُّ الحتمي إليها. وانصرفنا نحو الهدف ونسينا لماذا كان الهدف. لقد خفت الموت وخفت المرض وخفت الجوع وخفت الوحدة، فرحت أدفعها كلَّها عنِّي، وأحاربها بالطب والعلم، والزراعة، ووسائل المواصلات والتواصل. ولكنِّي لم أتوصَّل إلى الأمان الذي كان يفترض أن يكون بالانتظار على الطرف الآخر، أي هزيمة الخوف من هذه الأشياء. لقد سرنا نحو الأهداف ونسينا لماذا نسير نحو الأهداف.

أمَّا الموضع الثاني، فقد خذلتني قدرة الخيال في أن أرى صورة الأهداف بدقَّة، بل كانت تريني ما أريد أنا أن أرى منها. لعلِّي لو تخيَّلت بشكل كامل ما قدم به التطوُّر العلمي لما ألَّهته،

لو تخيَّلت أن رفاهيَّة العيش قد تجلب الاكتئاب لأبطأتها. لو أنِّي رأيت حقيقة الكثير من الأشياء التي عجزت أن أتخيَّل تأثيرها على حياتي -بشكل أكثر اكتمالًا- لما كنت غاليت في تحقيقها بهذه السرعة.

ليس هذا فحسب، لم يخطر ببالي أن الوفرة قد تذهب إلى جزء من أبنائي دون الآخر، لم أكن أرى أن بعضهم قد يبالغ باستهلاكها وبعضهم قد يشتاق إليها. لم أكن أتخيَّل أن الطب قد ينتج شركات ومؤسسات تحرم بعضًا من أبنائي وتهب العلاج والحياة لبعضهم الآخر. لم يخطر ببالي أن السلاح الذي استأمنت به يصبح خطرًا على وجودي ووجود أولادي ويستضعف به فئة منهم فئة أخرى. تريدين أن تسمعي المزيد؟ نعم لقد أخفقت. وأنا الآن تائهة لا أدري ماذا أشعر، أو ماذا عليّ أن أشعر. ما رأيك فيما سمعت يا سؤال؟».

وللمرَّة الأولى، ردَّت سؤال بجواب نزل على إنسانة كالصاعقة. فهي تعرفه كاليقين في جوفها وتخفيه عميقًا بداخلها وبداخل القليل من أبنائها. كان هؤلاء الأبناء القِلَّة ينظرون في عينيها المرهَقتين من سهر السعي وراء سراب الهدف فتبتعد بناظريها كمن لا يريد الاعتراف أو لا يريد أن يخسر ما استثمر به عمره. وها هي اليوم تسمع ذلك الجواب من فم سؤال حيث قالت: «أعتقد أنَّك تفتقدين وتشتاقين وتحتاجين إلى الجبلاوي. لقد

تباعدت وذريّتك كثيرا عنه حتّى ما عاد ذلك الحبل يربطكما.

لعل شعور مرتع الجبلاوي لم يكن مرتبطًا بالأمن أو العدل أو الاكتفاء، أو المتعة، أو الراحة، أو السعادة، بل كان ببساطة مرتبطًا بالجبلاوي نفسه».

عصير الكتب